

المَبَابُ الشَانِي

الحياة الروحية في الجزيرة العربية في
القرن الأول الهجري

17

18

19

الفصل الأول

تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى الزهد والتصوف

إن تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى قسمين رئيسيين ١ - الزهد ٢ - التصوف فيه من الاعتقال الشيء الكثير . ولم يكن جولد تسيهر - فيما تصور المستشرقون المحدثون - أول من فعل هذا . لقد سبقه في هذه المحاولة كثيرون من مؤرخي الحياة الروحية عند المسلمين ، وعلى الأخص ابن الجوزي في كتابه المشهور تلبس إبليس ، وابن خلدون في مقدمته . أما أن في هذا التقسيم افتعلاً ، فهو واضح للأبواب الآتية : كلمة الزهد ليست مصطلحاً قرآنياً أو حديثياً . وكان رواد الروح الأوائل في الإسلام يتعلقون بالمصطلح القرآني أو بالمصطلح الحديثي يعيشون فيه ويطلقونه على أنفسهم أو يطلق عليهم أو ينحتون مصطلحهم منه أو ينحت عليهم . ونحن نعلم أن أول مصطلح أطلق على رواد الحياة الروحية الإسلامية الأولين كان مصطلح الصحابة . هؤلاء الذين تخلوا عن عبادة الأوثان ونأوا عن حياة الجاهلية - ملذاتها وآثامها وشروها . وأوضارها . آمنوا بالتوحيد - وأقبلوا يستمعون إلى القرآن ويتدبرونه . ثم حين تمخّل الكثيرون منهم عن أمواضهم ومتاعهم وقيائلهم ، وانتقلوا إلى المدينة ، سموا بالمهاجرين ، وسمى من فعل هذا من أهل المدينة بالأنصار ، وتشملهم كلمة الصحابة جميعاً . ولما أقبل الناس على الإسلام ، وفشا في الغنى والفقر ، وفي الأفخاذ وفي العشائر والقبائل ، سمي أهل الروح من الصحابة بالقراء ، كما ظهر مصطلح أهل الصفة والفقراء . وبقى اسم القراء علماء على أصحاب القرآن ودارسيه في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل . ثم ظهر في عهد الخليفة الرابع اسم «المعتزلة» وكان سماً على من زهدوا النزاع بين علي وأعدائه ، ولزموا دورهم للعبادة . وذهبوا للمرابطة في الثغور . وظهر في هذا الوقت أيضاً اسم العباد ، كما ظهر اسم الخوارج أيضاً ، وكانوا فرقة زاهدة ، ومعظمهم من القراء . وبعد مقتل علي ثم ابنه الحسين ، ظهرت طائفة التوايين والبكائين ، ثم أنماط من أسماء فرق زاهدة أخرى - على تفاوت في الدرجات - القصاص والنسائك والسامعين والمصلين والربانيين . ولم تظهر كلمة الزهاد في القرن الأول وأوائل القرن الثاني علماً على طائفة ، كما ظهرت المصطلحات التي ذكرتها علماً

على طوائف . والسبب في هذا كما قلت أن كلمة زهد لم ترد في القرآن إلا في موضع واحد وهو « وشرو
بشمن بحس درهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » يوسف آية (٢٠) وليس للكلمة في هذا الموضع
معنى روحى ، بينما ذكر الله في كتابه الصادقين والصادقات ، والقانتين والقانتات ، والخاصين
والخاصات والموقنين والمخلصين والمحسنين والخاصين ، والراجلين والوجلين والعابدين والساجدين
والصابرين ، والراضين والمتوكلين والمجتبين والأولياء والمتقين والمصطفين الأخيار والمجتبين والأبرار
والمقربين ، كما ذكر المشاهدين والمطمئنين والسابقين والمقتصددين والمساكين إلى الخيرات ، كما ذكر - كم
قلت - الصحابة والعباد والنسك ، كما ذكر الحديث المكلمين والمحدثين « إن من أمتى مكلمين
ومحدثين ، وإن عمر منهم » وذكر الشعب الغبر « رب أشعث أغبر ذى طمرين ، لو أقسم على الله لأبره ،
كما ذكر حديث القلب « استفت قلبك » (١) كما عرف رواد الروح في الشام باسم « الجوعية » حقاً إن كل
كلمة من هؤلاء تحوى معنى الزهد في الدنيوية الجسدية وشهوات النفس ، ولكن لم تستخدم الكلمة
علماً على مجموعة أبداً . وليس معنى هذا أن رواد الروح الأوائل لم يستخدموها على الإطلاق ، إنهم
استخدمت . ونرى الحسن البصرى يقول وقد سئل عن فقيه « وهل رأيت فقيهاً قط . إنما الفقيه الزاهد
في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، والبصير بأمر دينه » (٢) وكان الحسن البصرى يرى أن كلمة الفقيه
أوسع ، وتشمل المعاني الروحية ، كما تشمل المعاني العملية . فكلمة الزهد إذن كلمة حادثة ومتأخرة .
وقد تنبه ابن الجوزى إلى هذا (٣) . ولكن تقسيم الحياة الروحية الإسلامية سواء عند الأقدمين من
أمثال ابن الجوزى نفسه ، ثم ابن خلدون ، أو عند المستشرقين من أمثال جولدمسير ونيكلسون
وماسينيون انتهى إلى وضعها في إطارين رئيسيين : الزهد والتصوف ، ومع ما في التقسيم من تعسف -
كما قلت - إلا أنه ساد الدراسات الحديثة في تاريخ التصوف وفي موضوعاته . وسأحاول في كتابى هذا
أن أعرض للمرحلة الأولى من الحياة الروحية الإسلامية تحت أسائها الحقيقية ، وإن كان يشملها
جميعاً - اسم مرحلة الأخلاق العملية لدى أهل الروح في الإسلام ، ثم مرحلة التصوف وهى مرحلة
الأخلاق النظرية ومع نظريات فلسفية ميتافيزيقية أو نظريات نفسية - ثم مرحلة التصوف الفلسفى -
وهى مرحلة الفلسفة النظرية البحتة .

وقد قلت من قبل إن المستشرقين يدعون أن جولدمسير هو أول من وضع التخطيط العام لفكرة

(١) الطبرى : المعصوم ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٦ .

(٣) الجوزى : تلييس إليس ص ١٦١ .

تقسيم الحياة الروحية عند المسلمين إلى زهد وتصوف ، وأنه وجد لدى المسلمين نفس التقسيم الذى وجد فى اليهودية والمسيحية من قبل - وهو التقسيم المشهور إلى (١) الحياة المتطهرة (ب) الحياة الإشرافية . وسنجد عبث هذه المقارنة حين نبحث - موضوعياً - تطور الحياة الروحية الإسلامية ، أما التقسيم ذاته ، فقد سبقه فيه ابن الجوزى من ناحية ، وابن خلدون من ناحية أخرى .

يقرر ابن الجوزى أن الزهاد نشأوا أولاً فى الإسلام . وكانت النسبة أولاً فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإيمان والإسلام ، ثم حدث اسم زاهد وعابد . ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد وتحلوا عن الدنيا ، وانقطعوا للعبادة ، واتخذوا فى ذلك طريقة معينة إختصوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها . وفى موضع آخر يقرر أن الصوفية من جملة الزهاد ، انفردوا عن هؤلاء الزهاد بصفات وأحوال وتوسموا بسماة . ولذلك بحث الزهد فى فصل ، والتصوف فى فصل آخر (١) .

ثم كتب ابن خلدون فصلاً من أدق الفصول فى مقدمته عن التصوف . ويذهب ابن خلدون إلى أن التصوف علم من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة « وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الهداية . وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف » فابن خلدون إذن توصل إلى أن التصوف بدأ زهداً ، وأنه كان عاماً فى الصحابة والتابعين . ثم يذكر أنه لما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة .

نص ابن خلدون عجب فى أنه يقول إن الصحابة جميعاً كانوا من الزاهدين . وقد ذهب مؤرخو الصوفية وطبقاتهم إلى إعتبار العشرة المشهود لهم بالجنة من الصحابة « صوفية وزهاداً » - هذا بالرغم من أن البعض منهم قد أثرى ثراءً فاحشاً . وقد هاجم المستشرقون ، نظرية زهد الصحابة جميعاً . ولم يفهم المستشرقون ما ذهب إليه مؤرخو الطبقات . قصد هؤلاء المؤرخون المسلمون نوعاً من الزهد عند هؤلاء الصحابة ، وهو الزهد فيما حرمه الله ، والإنفاق فى سبيل الله حين يدعو داعى الجهاد . وقد ذهب المستشرقون إلى أنه كانت هناك مجموعة من الصحابة وغيرهم تزهدت فعلاً ، ونسبوا تزهدها إلى دواع غير إسلامية ، ومن الأمثلة على هذا أبوذر الغفارى وعامر بن عبد قيس . واعتبروا الأخير نباتياً وأوصلوه بالمذهب البوذى . وسرى تهافت هذه الفكرة الأخيرة وعدم صحتها . وأن ما نسب إلى

عامر بن عبد قيس كذب . ولكنى أقول : إن الدنيا حقيقة أقبلت على المسلمين في ذلك الوقت ، وأن كثيرين من الصحابة أثروا ثراء كبيراً ، وأنهم أخذوا من الدنيا نصيباً وزهدوا في الحرام فقط ، وأنهم توسعوا وفسروا الإسلام تفسيراً فقهيّاً . ويجانب هذا وجدت طائفة على رأسها علي بن أبي طالب وكثير من الصحابة - وقد نأوا بأنفسهم نأياً كاملاً عن كل ما يتصل بالدنيا بسبب ، زهدوا في السبي والغنائم ، وهي حق حلال لهم بمقتضى قانون الإسلام ، بل بمقتضى قانون الحياة . وعاشوا عيشة تقشف نادرة . وسرى في عهد مشيخة الصحابة ، وفي عهد عثمان بن عفان ، كيف وقف أبوذر الغفاري ينهى عن الكتوز . وينادى بنظرية المال السبيل ، ويعلم أن المال مال المسلمين ، لا مال الله . وكيف قاومه المجتمع القرشي خاصة . وكان هذا المجتمع قد بدأ يسترد قوته الجاهلية وسطوته في عهد الخليفة الثالث . وكيف بدأ هذا المد العائى يضع أساساً للملكيات عربية ، وكيف يقتنى الأموال ، وكيف يغلو في الترف ، واتخذ دمشق مركزاً له . وكان لابد أن تقوم ثورة في أعماق المجتمع العربي نفسه . ولذا أخطأ ابن خلدون حين قال : فلما خشي الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة . إن الإقبال على الدنيا بدأ في القرن الأول وبدأ من مجموعة يطلق عليها خطأ اسم الصحابة ، ولكنهم هم الطلقاء من أهل مكة ومن بطن بنى عبد شمس ، وقاوم هذا زهاد الصحابة والتابعين ، وبدأت الحركة إسلامية عربية لا صلة لها بمؤثر خارجي ، وانتقلت بعد ذلك إلى المعتزلة في البصرة ، وأقصد بالمعتزلة هنا لا المعتزلة الكلامية ، وإنما معتزلة الفتنة : فتنة علي ومعاوية الذين عاشوا في البصرة ، وافد المذهب ومعتزك الآراء . وكان الناس - كما ذكرنا في الجزء الأول من نشأة الفكر - يتعللون في المعصية بالقدر ، ويغفلون في هذا غلواً كاملاً ، وظهر في ذلك الوقت رجال من القدرية والمعتزلة يناهضون هذا ، وظهر في الوقت نفسه الإمام الحسن البصرى مكوناً أول مدرسة في الزهد في الإسلام ، فالزهد إذن ظهر بين الصحابة أنفسهم ، وميز البعض منهم عن الآخر .

ثم يذهب ابن خلدون إلى أنه لما أخذ هؤلاء بمذهب الزهد والتبتل والانفراد عن الخلق والإقبال على العبادة ، اختصوا بماخذ مدركة لهم ، وذلك أن الإنسان بما هو إنسان ، إنما يتميز عن سائر الحيوان بالإدراك وإدراكه نوعان :

١ - إدراك للعلوم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم .

٢ - إدراك للأحوال القائمة من الفرح والحزن والقبض والبسط والصبر والشكر ، وأمثال ذلك ،

فالروح العاقل والمتصرف في البدن ينشأ من إدراكات وإرادات وأحوال ، وهي التي يتميز بها الإنسان ،

وبعضها ينشأ من بعض ، كما ينشأ العلم عن الأدلة ، والفرح عن إدراك المؤمن والمتلذذ به ، وكذلك المرید فی مجاهدته وعبادته لا بد أن ينشأ له عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة ، وتلك الحال إما أن تكون نوع عبادة ، فترسخ وتصبح مقاماً للمريد ، وإما أن لا تكون عبادة ، وإنما تكون صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ، ولا يزال المرید يترقى من مقام إلى مقام ، إلى أن ينتهى إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة .

إذن ففي رأى ابن خلدون أن الزهد ظهر في القرن الثاني كملذهب واختص أصحابه به وانفردوا عن الناس بالعبادة . أى أنه كانت لهم حلقات معينة يتدارسون فيها على طريقة خاصة في عبادتهم أو علمهم الجديد ، وقد ميز بينهم وبين طائفة أخرى بقوله : إن إدراك الناس نوعان : نوع يدرك العلوم العقلية التي يتناولها اليقين والشك والظن والوهم ونوع يدرك الأحوال القلبية والواردات التي ترد على الناس من حزن وقبض وبسط ورضا وغضب . . إلخ ، وهم الذين يسعون سعياً كاملاً في طريق ليس بالسهل فيقضون أوقاتهم في العبادات ، حتى ترسخ فيهم ، ويترقون من مقام إلى مقام حتى ينتهوا إلى مقام التوحيد . ويرى ابن خلدون أن على المرید أن يترقى في المقامات والأطوار التي سندها كلها الطاعة ، ويتقدمها الإيمان ، ويقارنها أحوال وصفات ومقامات ينتج عنها ثمرات معينة ، ثم تقام على هذه الثمرات ثمرات أخرى ، حتى ينتهى إلى مقام المقامات أى مقام التوحيد . ولكنه يضيف إلى مقام التوحيد مقام العرفان ، حتى يتميز الواصل بمقامين مقام الوحدة ومقام المعرفة . وإذا حدث تقصير في النتيجة أو خلل ، فإنما يكون سببه التقصير والتقصير في الطور الذي قبله ، والأمر كذلك في كل خاطر نفسى أو قلبى . ولذلك يحتاج الصوفى إلى أن يحاسب نفسه في سائر أعماله وينظر في ضوء حقائقه لأن حصول النتائج عن الأعمال لازمة ، ثم هناك الباب الأعظم باب الشريعة ، ينبغى أن يعرض عليها كل ما وصل إليه من مقامات وإلا أفشى وإذا أفشى تناوله - كما تناول الحلاج سيف الشريعة لما صاح أنا الحق ، وحين كان على خشبته مصلوباً ، أرسل إليه أبو بكر الشبلى فاطمة الأموية تقول له ، إن الله أطلعك على سر من أسراره فأذعته ، فأذاقك طعم الحديد ، ولم يشفع له عند الصوفية من أهل السنة أنه في هذا المقام صرخ بشهادة التوحيد الإسلامى ثم قال :

ندي غير منسوب إلى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب كفعل الحر بالضيف
فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

أى أن الحقيقة فيه أعمت ، فما استطاع لها كتماناً فشرعية التصوف ، أن يعود بحقيقته إلى

الشرعية ، فيكم ما يظن الجمهور أنه خلافها في ظاهرها وباطناً يوافقها . ثم يضع ابن خلدون أساساً للزهد والتصوف ، وهو أنه لا بد للصوفي من الإتيان بالطاعات خاصة من نظر الفقه ، أي أن يقبض الصوفي على الفقه بيده حين تناوله الأذواق والمواجيد ، ليعلم أنها خالصة من التقصير في الشريعة . فالطريقة إذن كلها محاسبة النفس على الأعمال . ثم أن يتكلم الصوفي في الأذواق والمواجيد التي تحدث عن المجاهدات حتى تستكن في النفس مقاماً يترقى منه إلى غيره ، على أن يكون ذلك كله متوافقاً مع الشريعة .

ويضيف ابن خلدون إلى أن لهم اصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم . ولهذا اختصوا بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم من أهل الشريعة أو الكلام . أو بمعنى أدق صار الفقه فقهاء :
١ - فقهاء مخصوصاً بالفقهاء وأهل الفتاوى ، وهم أهل الأحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات .

٢ - فقهاء خاصاً بالمجاهدة ومحاسبة النفس والكلام في الأذواق والمواجيد التي يتناولها الصوفي وكيف يترقى الفقيه أو الصوفي من واحدة إلى أخرى ، ولما دونت العلوم ، وكتب الفقهاء بالمعنى الجزئي فقههم ، كتب أيضاً الفقهاء من الصوفية فقههم الصوفي . ويبدو أن الطريقتين قد اختلفا - لا كما يذكر ابن خلدون - والصوفية الفلاسفة ، بل أيضاً بين الفقهاء المحصنين بالفقه وبين ما أسميم أنا الفقهاء المحصنين بالتصوف^(١) .

وستنتقل الآن إلى بحث الحياة الروحية في الجزيرة العربية ، وهل تمت عوامل خارجية أثرت فيها . وهل امتدت هذه العوامل إلى الحياة الروحية في الإسلام - فيما بعد .

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٦٧ - ٤٦٩ .

الفصل الثاني

الحياة الروحية

لدى العرب الجاهلين

لم تكن الجزيرة العربية قبل الإسلام بمنأى عن التيارات الروحية أو الدينية التي كانت تسيطر على العالم وقتذاك . كانت هذه التيارات تصطرع وتعلج ويحارب بعضها البعض في أرجاء العالم المعروف . فكان لا بد لها أن تدخل في أركان من هذه الجزيرة الشاسعة ، وتحاول السيطرة على أفرادها ومجتمعاتها . وسرى خلال عرضنا هذا إلى أي حد استطاعت النفاذ إلى هذا المجتمع ذى الملامح الخاصة ، الفاصلة بينه وبين غيره من المجتمعات المعاصرة له . ولقد ظن الباحثون مدة طويلة من الزمن أن هذا المجتمع الجاهلي كان يضم قبائل متناثرة تعيش عيشة ساذجة بدائية ، لا رباط بينها سوى مجموعة غير منظمة من العرف والتقاليد لكن اكتشاف مجموعة الآثار الحميرية والسبئية غيرت هذه الفكرة تغييراً كاملاً . وانطلق بعض الباحثين - في ضوء الكتابات والآثار التي اكتشفت إلى وضع صورة مخالفة للصورة الأولى ، صورة لأمة تكونت ووضعت نظامها الاقتصادي والاجتماعي ، وازدهرت حياتها في جنوب الجزيرة وشمالها ، ولكن الإمبراطوريات المصطرعة وقتذاك لم تتركها في هدوء ، فتدخلت في حياتها ، وتمزقت تلك الحياة في الشمال وفي الجنوب ، وأصبحت مسرحاً من مسارح النزاع . ولكن بقي الوسط بمنأى عن هذا ، فاحتفظ وادي الحجاز بنقائه الأصيل ، وقد كان وادياً غير ذى زرع ، وفي وسطه البيت المقدس ، يذكر الجزيرة كلها بأنهم أولاد الذبيح ، وتوجه إليه العرب من كل فج في الجزيرة يقيمون فيه عباداتهم على أي صورة يرضونها ، فكان البيت في مكة رمزاً دائماً لوحدتهم الجنسية ، ولوحدتهم الدينية ، كما كان نشوقهم لأمل في مستقبل قريب .

ولم تكن الأديان المختلفة التي كانت تسيطر على العالم وقتذاك بغافلة عن هذا المكان ، ولا عن أهميته الكبرى في نزاعها الدامي في زمن الفترة هذه ، فتسللت الواحدة بعد الأخرى ، محاولة أن تنزرو المكان .

١ - المسيحية التقليدية ومسيحية الأسينيين :

أتت المسيحية من الشمال ، كما أتت من الجنوب ، وأعتنق الغساسنة المسيحية ، كما أعتنقها أهل نجران . وكانت مسيحية الجزيرة العربية جميعاً مسيحية نصية ، لا تحاول الجدال أو أن تعرض لفكرة الثالث - فكرة الواحد ذى الثلاث أقانيم ، أو فكرة الصلب ، كان كل هذا بعيداً عن فكر العري وإحساسه .

وإنتشر الرهبان والقسس في صوامع متعددة عبر الصحراء ، وعاش بعض النصارى حتى في مكة نفسها . وسرى واحداً أو اثنين منها يظهران في عهد الرسول نفسه ، وهما جبر ونسطاس . بل ذكر أن أولهما كان يعلم النبي ، وقد رد القرآن « ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عري ميين » وتنصر البعض من قريش ، كورقة بن نوفل ، وكان قريباً لخديجة زوج النبي ، كما تنصر عبيد الله بن جحش ، ثم تابع النبي ، وهاجر فيمن هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ، وعاد هناك إلى نصرانته ، وبقي في الحبشة بعد عودة مهاجرة المسلمين إلى الحجاز ثانية ^(١) ثم إن هناك قصة الراهب بجزيرة ، وقد قيل إنه قابل الرسول في أثناء رحلته إلى الشام وأنه تعرف فيه علامات النبوة ، وقد ثبت إختلاق قصة هذا الراهب ، وتهافت مقابله للرسول .

إن الثابت تماماً هو وجود المسيحية في الحيرة وفي نجران . ومن نجران أتى الوفد المسيحي الذي قابل الرسول في سهول المدينة وعلى تبة عالية ، تمت قصة المباهلة التي ذكرها القرآن ، والتي استخدمها الشيعة - فيما بعد - للدلالة على إمامة علي وأولاده ، والتي أنتجت في الأدب الشيعي أجمل الأساطير . واحتلت مكانها لدى غلاة الشيعة ، كما سيطرت على الإسماعيلية واليزيدية والنصيرية والدروز ، وحين حاولت هذه الطوائف الغالية أن تضفي على الخمسة من أشخاص المباهلة الرسول وعلى وفاطمة والحسن والحسين وسلمان القداسة لم تكن تتجه إلى التراث المسيحي بقدر ما اتجهت إلى التراث المزدكي أو الفارسي أو الغنوصي عامة .

ولكن ما لم يتنبه إليه الباحثون هو أثر الأسينيين وهي طائفة يهودية مسيحية عاشت في قران وكشفت عنها وثائق البحر الميت - وهي طائفة تؤمن بوجود مسيح - هو ملهم العدل والتقوى . ويشبه تماماً مسيح القرآن .

وأياً ما كان الأمر ، فقد عرف العرب الجاهليون المسيحية وحاولت المسيحية أن تتسلل إلى حياتهم

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٤٧ .

الروحية ، فلم تستطع . كان هناك الرهبان في صوامعهم . وكان هؤلاء فيما أعتقد من الأسنين وكلمة أسيني تعني في الآرامية عيسوى - وهؤلاء - فيما أعتقد - هم المسيحيون الحقيقيون . وكان البدو يلجأون إليهم طلباً للماء أو للراحة ، وكانت رحلة قريش إلى الشام ، وقد تركت لنا المصادر بعض التفاصيل عن رحلات أبي سفيان والنضر بن الحارث وغيرهم إلى بلاد الشام ومقابلاتهم للمسيحيين . ولم تؤثر هذه الرحلات وهذه الاتصالات في أعماق هؤلاء جميعاً ، كان أبو سفيان مجوسياً ، ولم يتنصر النضر بن الحارث ، بل كان يرنو هو إلى النبوة . وبقى سهل الحجاز . وثنيا في ظاهره ، ينظر إلى أمور الحياة وما بعد الحياة نظرة واقعية محسوسة تصبغ كل حياته ، ولكن يضطرم في نفسه تراث عميق يتصل بالبيت العتيق ، ويحس في أعماقه أنه بقية من باني هذا البيت إسماعيل بن إبراهيم . وحين بعث الرسول ، وذكرهم القرآن بأنهم أبناء إبراهيم ، إبراهيم الذي وضع قواعد البيت الحرام وأرساه وأسكن ذريته بواد غير ذى زرع في جواره ، فهم جيران الله وضأنه ، استجابوا ، وسرئى كيف كانت فكرة البيت ملهمة للصوفية جميعاً ، حتى هؤلاء الذين غرقوا في الغنوص ، كما سرئى فكرة ضأن الله تصبغ حياة الكثيرين من صوفية الإسلام ، بل سيحقق البعض منهم هذه الفكرة عملياً متابعين سنة إبراهيم وحلمه الذى لم يتحقق في جدهم الأكبر إسماعيل ، فقدى بالذبيح ، فتقدموا هم ، محققين إسماعيل آخر مذبحاً .

وحين دعى العرب إلى الإسلام ، آمنوا جميعاً به . وكانت غالبيتهم - كما نعلم وثنين ، وأقلية مسيحية ويهودية .

وأنتهى من هذا إلى أنه لم يكن للمسيحية من أثر روحى في حياة العرب قبل الإسلام . بل كان الإسلام نفسه هو أول من نبه العرب إلى حقيقة المسيح ، وطلب منهم الإيمان به ووضعه في نسق أولى العزم من الرسل ، في صورة رائعة جذابة ، فكان إيمانهم به عن طريق القرآن والحديث ، وكان تمجيدهم له تمجيداً إسلامياً بحتاً .

وبنى أبرهة لملك الحبشة القليس ، كنيسة كبيرة ليصرف العرب عن الكعبة - وأتى لخدمها . ووقف عبد المطلب سيد قريش . وهو ممسك بحلقة باب الكعبة يقول :

يا رب إن المرء يمنع	رحله فامنع	حلالك
لا يغفلين صليبيهم	ومحالمهم عدوا	محالك
إن كنت تاركهم	وقبلت فأمروا	بذلك

بل إنه يذكر إبراهيم بأبي الكعبة :

نحن أهل الله في بلدته لم يزل ذلك على عهد إبراهيم
 نعبد الله وفينا شيمة صلة القرى وإيقاء الذم
 إن للبيت ربا مانعاً من يردّه بآثام يصطلم

٢ - اليهودية وأثرها في الجزيرة العربية :

وإذا انتقلنا إلى أثر اليهودية في الحياة الروحية للجاهليين العرب ، نرى الأمر في ظاهره يختلف تماماً عن أمر المسيحية وأثرها في الجزيرة العربية فبينما لا نرى هجرة بيزنطية أوحشية إلى البلاد العربية . نرى اليهود يلبأون إلى الجزيرة . كانت المسيحية تنزل ضرباتها العنيفة على اليهود في كل مكان ، وكان اليهود أنفسهم يقتلون بعضهم البعض . ولم تجد بعض القبائل اليهودية حرماً آمناً سوى بلاد الحجاز ، فهاجروا إلى شامها ، كما ذهب البعض منهم إلى اليمن . وما لبثت البطون اليهودية في شمال الحجاز أن قامت ببناء المستعمرات وإنشاء الآطام . وأعطتهم الجزيرة آمناً وسكينة . بل تهودت بعض الأفخاذ العربية ، كما تهودت بعض قبائل اليمن . (١) ونحن لا بعيننا هذا التاريخ . ولكن نتساءل : هل أثر هؤلاء اليهود في الحياة الروحية للعرب الجاهليين . هل نادوا بالتوحيد ، وقد كانوا هم في هذا الوقت سدنته وحجته . إن القول بأنهم لم يدعوا العرب إلى اليهودية ، باعتبار ادعائهم - أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا يدخل في الدائرة الدينية اليهودية المعلقة سوى اليهودى جنساً ، قول كاذب ، إنهم أغلقوا فعلاً الدائرة اليهودية في كل بلد دخلوه ، ولكنهم لم يفعلوا هذا في الجزيرة العربية . كانت الأسباب قد انقطعت بينهم وبين اليهود في كل البقاع ، واستمر بواتعاً . ودخلت بعض الأفخاذ في يثرب في دينهم ، وكانت الدولة اليهودية الحميرية في اليمن دولة عربية . فمن المؤكد إذن أن اليهود دعوا إلى اليهودية ، وانطلق شعراؤهم يتغنون بها . ولكن المجموعة الكبرى العربية ظلت بعيدة كل البعد عن اليهودية والتضكير فيها . ولم تؤثر اليهودية أدنى تأثير في مكة ، كما لم تهود قبيلتنا المدينة الكبيرتان الأوس والخزرج . وحين لم يبلغ اليهود مآربهم الدينية والسياسية والاقتصادية في هاتين القبيلتين ، أثاروا بينهم العداوة والبغضاء . وكانت نتيجة هذه السياسة المنكرة حرب بعث . التي كادت أن تفتي الأوس والخزرج . وحال دون هذا الإفناء اليهودى مبعث الرسول محمد ﷺ . ثم انحسرت اليهودية عن اليمن بعد حروب عنيفة بين

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية و صدر الإسلام ص ٤٩-٤٨ .

الوثنيين العرب واليهود من ناحية ، وبين اليهود ومسيحي الحبشة من ناحية أخرى . وعادت اليمن وثنية في ظاهرها .

وعجباً أن ينكر العرب اليهودية ، وأن يتخلوا عنها ، وكانت تدعو إلى التوحيد ، وأن يبقى العرب على عبادة الأوثان . وكما قلت من قبل ، إن هذه العبادة كانت أصيلة موغلة في نفوسهم ، كانت في قلوبهم ذكريات متمكنة ولكنها غامضة عن تناسلهم من الذبيح إسماعيل ، وكانت هناك ذكرى من إسماعيل ، بقيت متمكنة وغير غامضة ، بل محسوسة ظاهرة تذكرهم به أيضاً ، هو البيت العتيق ، الكعبة ، في قلب مكة . ولم يتمكن اليهود من صرف العرب عن بيتهم تجاه البيت المقدس ، كما حاول أبرهة أن يقضى عليه أيضاً ، وأن يبني للناس بيتاً آخر يصددهم عنه . كان العرب جميعاً يؤمنون بأن البيت بيت الله ، وأن للبيت رباً يحميه . كما أعلن عبد المطلب سيد قريش من قبل . وقد حملوا أصنامهم إلى هذا البيت ، تفرجهم زلنى إلى البيت ، ولئن كانت اليهودية قد فشلت في جذب العرب إلى اليهودية ، فهل فشلت في إذكاء حياة روجه لدى مجموعة من الأفراد . يرى البعض من الكتاب اليهود أن الحياة الروحية في الجاهلية إنما تتضح لدى مجموعة عرفت باسم الأحناف ، وإذا كان الكتاب المسيحيون يذهبون إلى أن هذه المجموعة كانت مسيحية المترع ، يذهب هؤلاء الكتاب اليهود إلى أن الأحناف كانوا في حقيقة الأمر يتجهون إلى اليهودية . وسنبحث هذه المسألة بعد قليل ، وسنبين حقيقة هؤلاء الأحناف . وسنرى أنهم لم يكونوا مسيحين ، كما أنهم لم يكونوا يهوداً . كما ذهب هؤلاء الكتاب اليهود إلى أن « صوفة » وهى المصدر التاريخى للتصوف ، إنما هى كلمة يهودية تعنى الحارس أو البصير في الشؤون الدينية ، وسنحقق هذه المسألة أيضاً . وسنرى بُعد النظرية اليهودية عن الحقيقة .

٣ - الثنوية الفارسية في الجزيرة العربية :

ودخلت المجوسية - أى الثنوية الفارسية إلى الجزيرة العربية . وكان أبرز من اعتنقوها من الأفراد هو أبو سفيان ، عدو الرسول محمد ﷺ . وكان الرجل على دهاء كبير ، حارب الإسلام تحت تأثير من مجوسيته أشد حرب . ولعل فكرة « السفياى » ومهديته التى نشأت في أطوار من عهود الدولة الأموية ، كانت نتاجاً لأفكار غنوصية ترددت في هذه الأسرة القائمة ، كما كان للمجوسية الفارسية أيضاً أثرها في مسيلمة المنتهى في اليمن ، أثرت في أعماقه وترددت في البقية الباقية من آثاره التى تركت لنا ، وأثرت الغنوصية الفارسية أيضاً أثرها في البعض من قبائل اليمن بجيلة وكنده وغيرهما . وستتج في الكوفة والمدائن وغيرهما في العهد الإسلامى صوراً من التشيع ، وقد تظاهر أصحاب هذه المذاهب بالترهد

والتقشف . فأتتجوا فكرة المهدي الشيعي - آخذين من كل المذاهب الدخيلة على الإسلام . ولكن ينبغي أن نقرر أنه وإن كان قد أعتق المجوسية أو الفنوصية الفارسية أفراد من العرب أو مجموعات قليلة منهم ، فإنها لم تؤثر في المجموعة العربية الكبيرة أدنى تأثير . ولا نجد اسم المانوية أو المزدكية أو الديصانية أو المرقونية أو المانداية أو الزرادشتية يتردد لديهم .

ولعل الاسم الوحيد الذي كان شائعاً لدى العرب هو اسم الصابئة ، وكان الفعل الذي نحتت منه الصابئة ، أى صبأ معروفاً لدى الجاهليين . ولقد أتهم النبي محمد ﷺ من مشيخة قريش بأنه « صبأ » وسيستخدم القرآن اسم الصابئة ، ولعل هذا الاسم قد عرف لدى العرب لصلته بجدهم الأكبر « إبراهيم » . وفيما عدا ذلك ، فشلت المجوسية أو الثنائية الفارسية في جذب العرب الجاهليين أو في إقامة حياة روحية لديهم .

٤ - البوذية والأديان الهندية في الجزيرة العربية :

ولم تكن للبوذية أو للأديان الهندية عامة أثر في حياة الجاهليين . كانت موانئ اليمن مفتوحة لتجار الهند ، ولكن لم تنفذ اتجاهات روحية أو دينية إلى مجتمع العرب من قبل هؤلاء . وسرى تهافت أسطورة تأثر أحد التابعين - وهو عامرين عبد القيس بالهند كما سرى أيضاً ، وحين نبحت الحياة الروحية لدى أوائل الصحابة ، أن طريقة تبطلهم لم تكن على طريقة طقوسية بوذية أو على نموذج جنبي أو يوجي . لقد نأت المجموعة العربية الكبرى - كما رأينا - عن الأديان الداخلة والطارئة عليهم . تقربوا إلى الله بالأصنام والأوثان في إصرار عجيب ، وأغلقوا منافذ عقولهم وقلوبهم دون اليهودية والمسيحية والمجوسية والبوذية ، وذلك لإيمانهم الكامل بأنهم ينتسبون إلى إسماعيل وأبيه إبراهيم . ولقد حاول المؤرخون أن يلقوا الضوء على تحول أولاد إسماعيل هؤلاء من دين التوحيد إلى عبادة الأصنام . والتفسير الشائع : أنه حين كثر أولاد إسماعيل ، ابتعدوا عن بيت الله في مكة ، منتشرين في أرض الجزيرة طلباً للعيش ، أخذ كل منهم حجراً من جبال مكة ليذكرهم ببيت الله القائم في واد غير ذي زرع ، ثم تعاقبت الأجيال ، وعبدوا الحجر ، وصنعت منه الأصنام ، يقول الأزرقى « إن بني إسماعيل وجرهم من ساكني مكة ضاقت عليهم مكة ، فففسحوا في البلاد ، . . . واتمموا المعاش وأن أول ما كانت عليه عبادة الحجارة تعظيماً للحرم وصابئة بمكة وبالكعبة حينما حلوا ، وضعوه . فطافوا به كالطواف بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنا من الحجارة ، وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ،

فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من ضلالات، وانتجسوا ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما كان بقي فيهم من ذكرها. وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتسكون بها من تعظيم البيت والطواف به، والحج والعمرة (١) « ثم كانوا يكررون راجعين إلى الكعبة - صباية بها وشوقاً، يضعون فيها أصنامهم وأوثانهم، وعلى جدران الكعبة صوروا كل شيء، حتى إبراهيم يستقسم بالأزلام، ومريم وأبنا عيسى (٢) وصور الملائكة - إناناً وذكوراً، ثم تماثيل أو أصنام لكل. نصبت الأصنام في الكعبة، رامزة إلى نواحي العبادة المتعددة، حتى عبادة الجنس أو توتم الجنس، أساف ونائلة، أصحاب الأسطورة القائلة بأنهما زنيا في الكعبة، فسخها الله نصيين أو صنمين، ثم عاد الناس يتمسحون بهما ويعبدونهما (٣).

ونلاحظ كما قلنا من قبل، إن التعظيم والعبادة لم تكن تتوجه نحو الأصنام في ذاتها، بقدر ما كانت تتجه نحو الكعبة، بيت الله، بيت إبراهيم وإسماعيل. وارتبطت قبائل العرب المتفرقة جميعاً في وحدة دينية باطنية مركزها البيت المكي، وجمعوا فيه نماذج العبادات جميعاً في صورة الأوثان والأصنام ووضعوها فيه، فإذا أقبلت الأشهر الحرم أقبلوا إليه للحج.

٥ - الأحناف :

وهنا يأتي السؤال الهام : هل قام من بين العرب في الجاهلية من يذكرهم علانية بدين إبراهيم وإسماعيل، بالتوحيد النقي الذي وضعه جددهم الأكبر، وبنى لأجله البيت، ليقوموا الصلاة فيه ويحجونه، لله الواحد.

كان هنا وهناك طائفة عرفت باسم « الكهان » يلجأ إليهم العرب إذا حزبهم أمر من الأمور، كان هؤلاء يسجعون في نذرهم وبشاراتهم ونبوءاتهم، ولكن لم يرد في المصادر العربية ما ينسب عن حياة روحية أو صلة بدين من الأديان لدى هؤلاء الكهان. وكان يقال إن هؤلاء صلة بالجن والشياطين ولهم الرؤى والفراصة، وقد اتهم الرسول محمد ﷺ بالكهانة وأن أقواله من قبيل أقوال هؤلاء. ورد القرآن على هذا رداً حاسماً.

ولكن الطائفة التي أعلنت - في صراحة - إيمانها بالتوحيد الإبراهيمي أو الإسماعيلي، فقد كانت

(١) الأزرق : تاريخ مكة ج ١ ص ٦٧ .

(٢) نفس المصدر : ج ١ ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٣) الأزرق تاريخ مكة ج ١ ص ٦٩ ، ٧٠ / ٧١ / ٧٢ وابن الكلبي : الأصنام ص ٢٩ ، ٣٠ .

طائفة الأحناف أو الحنفية ، والتي اتخذت اسم الدين الإبراهيمي علماً لها . وقد ذكر القرآن مصطلح «ملة إبراهيم حنيفاً» دلالة على دين إبراهيم . وذهب البعض من مؤرخي العرب الأقدمين أنهم كانوا من أنبياء الفترة ، العهد الذي تراخى فيه الدين الذي أتى أخيراً توطئة لدين آت . ويوردون أحاديث عن النبي ﷺ أن البعض منهم كانوا أنبياء . فقد سئل النبي ﷺ عن خالد بن سنان العبسي فأجاب «ذاك نبي أضاعه قومه» وإني أشك في هذا الحديث دراية ورواية . إن الأحاديث الصحيحة مجمعة على أنه لم يكن بين عيسى ومحمد عليه السلام نبي فالحنفاء إذن طائفة من العرب ظهوروا قبل البعثة النبوية في مواضع كثيرة من الجزيرة العربية ، ولم يقبلوا أديان العرب الموجودة ، وعاشوا في زهد وتنسك بعيدين إلى حد كبير عن مشاركة المجتمع الجاهلي حياته ، ووسم البعض منهم بالنبوة ، وأعلن معظمهم أنهم يتابعون دين الحنيفية ، دين إبراهيم ، وحفظت لنا الكتب العربية أسماء عدد كبير منهم كقس بن ساعدة الإيادي وخالد بن سنان العبسي ، وأمّية بن أبي الصلت الثقفى وورقة بن نوفل وأبى ذر الغفارى . وذهب المستشرقون عامة ونيكلسون خاصة إلى أن هؤلاء الأحناف كانوا أثراً من آثار المسيحية في الجزيرة العربية . يرى نيكلسون - مستنداً على أبحاث فلهاوزن في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام - أن عرب الجاهلية كانوا على حظ قليل من التفكير الدينى - وأنهم شغلوا بحياة مادية بحتة ، ولم يفكروا في حياة أخروية ، ولكن قامت المسيحية غير التقليدية وغير المنظمة بنشر بذور الزهد في الجزيرة العربية .

ويقرر نيكلسون أن العرب كانوا على معرفة - ولو سطحية - بعقائد الديانة المسيحية وطقوسها . ويستخلص من بعض أشعار العرب ما يدل على معرفة عرب البادية برهبان المسيحيين ، وأنهم كانوا يعظمون ويمجّلون هؤلاء الرهبان القابعين في صوامعهم ، وكانوا يبتدون بالألوان المنبثة من هذه الصوامع ، ويسبّرون في الصحراء . وينتهى نيكلسون إلى القول بأن «هؤلاء الرهبان وغيرهم من الزهاد الهائمين على وجوههم ضربوا مثلاً للعرب الوثنيين في الزهد ، وحرّكوا في نفوس بعضهم ، وهم المعروفون بالحنفاء ، ميلاً إلى النفور من الأوثان ورفض عبادتها ، فدان هؤلاء بعقيدة التوحيد ، واصطنع بعضهم الزهد ومجاهدة النفس ، ولبسوا الصوف ، وحرّموا على أنفسهم بعض أنواع الطعام ، وليس هناك من شك في أنه كان هؤلاء الحنفاء بعض الأثر في محمد الذي كان معاصراً لكثير منهم ، وكان اثنان منهم ، متصلين به صلة قرابة أو نسب» (١) .

وقد توفى نيكلسون قبل اكتشاف وثائق البحر الميت المشهورة الآن - وقد كشفت لنا النقاب عن

(١) نيكلسون : في التصوف الإسلامى ص ٤٢ ، ٤٣ .

مجتمع قران - وكيف حاربه اليهود من ناحية والنصرانية الإغريقية من ناحية ، وكيف لجأ الكثير من هؤلاء إلى شمال الجزيرة العربية ، وهؤلاء هم الأسينيون أو العيسويون وقد قيل إن المسيح عيسى كان عضواً في هذه الجماعة أو هو مسيحها .

علاوة على أن نيكلسون وغيره من المستشرقين استندوا على تصور بعض المسيحيين من العرب لواحد من هؤلاء الخنفاء - وهو قس بن ساعدة الإيادي في صورة مسيحية . ففي أخبار ابن كثير « أنه كان في وفد عبد قيس حين وفدوا على النبي ﷺ الجارود بن المعل بن حنش بن المعل بن العبدى ، وكان نصرانيا ، وعالماً بالكتب المسيحية وتفسيرها ، والتراث الفارسي ، والفلسفة اليونانية والطب . وقد سأله الرسول ﷺ عن قس بن ساعدة : فأجابه الجارود ، وأخذ يصف قس بن ساعدة وصفاً تختلط فيه سمات اليهودية بسمات المسيحية ، فهو من ناحية سبط من أسباط العرب عمر ستائة سنة ، ومن ناحية ثانية « كان يضح بالنسيب ، على مثال المسيح » ، وكان يلبس مسوح الرهبان ، ويعيش معيشة السباح والرهبان ، بل ذهب الجارود إلى أن قسا أدرك رأس الحواريين سمعان - وسمعان - كان غنوصياً عنيفاً . ثم يعرض الجارود لآرائه فيقول إنه أول من تأله من العرب ووجد الله وأيقن بالبعث والنشور . ولكن ما يلبث الجارود أن يقول إنه « شوق إلى الخنيفية ، ودعا إلى اللاهوتية » وأنه دعا يوم عكاظ إلى عبادة الله الواحد الأحد فقال : « كلا - بل هو إله واحد ، ليس بمولود ولا والد ، أعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى » وهذا يدل على أن الرجل لم يكن مسيحياً ، وإنما كان يدعو إلى الخنيفية ، دين إبراهيم ، وخلق الجارود بين مسيحته هو ، وبدوان مسيحته هو أيضاً لم تكن المسيحية المعهودة ، بل كانت مسيحية أسيية ، أو كانت متصلة بالسبعانية ، وبين خنيفية قس بن ساعدة . وما يؤكد تمام التأكيد أن قس بن ساعدة كان على هذا الدين القديم المتصل يجد العرب الأكبر إبراهيم أو ابنه إسماعيل قوله : أو ما علمت أن ولد إسماعيل تركوا دين أبيهم ، واتبعوا الأصدقاء وعظمو الأنداد (١) . وهذا ما يحسم الأمر تماماً في عقيدة قس بن ساعدة . وكذلك إذا انتقلنا إلى بحث العقائد التي بشر بها أمية بن أبي الصلت الثقفي ، إنه أيضاً نظر في كتب الأوائل « وتعبد لرب إبراهيم وإسماعيل » وحرّم الخمر ، وشك في الأوثان ونهى عن عبادتها . . . تعود قصص الأحناف العرب جميعاً إلى عبادة أو إحياء « دين إبراهيم وإسماعيل » ونحن لا نرى في عقائدهم ظلاً أو ظللاً من فكرة التثليث ، ولم يعرفوا فكرة الصلب وهي أساس المسيحية . ثم إنهم كانوا يحججون إلى مكة ولا يحججون إلى بيت المقدس . فهم إذن بقايا لدين إسماعيل ، هذا الدين الذي ترك في نفوسهم آثاره العميقة ، حتى استكشفوه في أنفسهم . ولقد كان في استطاعتهم أن يعلنوا مسيحيتهم ، لو اعتنقوها ،

كما اعتنقها البعض من العرب ، أو أن ينتموا إلى السامانية ، وهي فرقة منحرفة عن المسيحية الممهودة ، وتحملت ضربات المسيحية العنيفة ، ولكن الصحراء كانت درعاً للعرب لو أرادوا اعتناقها . غير أن هذا لم يحدث قط .

وهنا يأتي الاحتمال الآخر: وهو صلة هؤلاء الأحناف باليهودية. هل كانوا أثرأمن آثار اليهودية. ذهب بعض الكتاب إلى أن هؤلاء الحنفاء تأثروا فعلاً باليهود ، بل كانوا صدى لليهودية في العالم العربي . وقد ذهب ابن هشام وغيره من مؤرخي السيرة - وبالتالي فترة ما قبل الإسلام - إلى أن إصلاح ملة إبراهيم كان ذاتاً في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام ، واشتهر به أفراد رقصوا عبادة الأوثان وخرجوا يلتمسون الحنيفية . ويقدم إسرائيل ، ولفنسون تفسيراً فيلولوجياً جديداً لإصطلاح «ملة إبراهيم» وهو أنه يعني «كل من اختن ودخل في ذمة وعهد إبراهيم الخليل» ويقرر ولفنسون أن الحتان وحده لا يؤدي إلى إعتبار المختن يهودياً ، لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توافرها كإعلان الدخول في الدين اليهودي الموحد ، واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه ، والخضوع خضوعاً تاماً أعمى للتلمود . لأجل هذا فقد أطلق اليهود على من يختن دون أن يعتنق اليهودية اسم حنيف غير الصالح ، أي الحتان غير الوافي بالشروط اليهودية . ويشير ولفنسون إلى أن لسان العرب يؤيد فكرته ، إذ ذكر اللسان أنه «كان في الجاهلية يقال : من اختن وحج البيت حنيف» وأن من سنة الحنيف الحتان . . . «وتحنف الرجل - أي عمل عمل الحنيفية ويقال : اختن» وينتهي إسرائيل ولفنسون إلى أن اليهود أطلقوا على العرب التي شاعت عندها عادة الحتان هذا اللفظ . كانت غاية إسرائيل ولفنسون هي أن يثبت أن عادة الحتان قد سرت إلى العرب من اليهود . وهذا لا يعيننا هنا - مع كذب هذا الادعاء ومع أنه في فقرة سابقة يقول : «لا شك أن عادة الحتان لم تسر من اليهود إلى العرب لأنها كانت شائعة عند قبائل مختلفة في الجزيرة العربية منذ عصور غابرة» غير أن تحليله الفيلولوجي لمصطلح «ملة إبراهيم حنيفاً» يثبت تماماً فكرتي التي أقرها وهي أن مجموعة من مفكري العرب كانوا يشعرون بوضوح بأن العرب فارقت دينهم الأصلي دين إبراهيم وجدهم الأكبر إسماعيل . ويورد ولفنسون آراء فلهاوزن الذي يذهب إلى أن الحنيفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت ، لكن Lesynshy يعارضه ويقول «إن الحنيفية لم تكن نصرانية البتة ، كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص من مفكري العرب استكروا عبادة الأوثان ، متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ، ودخل بعضهم في اليهودية ، ودخل بعض آخر في النصرانية ، وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان ، واستدل على ذلك بقول القرآن «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً» فإنه صريح في أن الحنيفية لم تكن واحداً

منها». ويورد إسرائيل ولفسون - قصة زيد بن عمرو بن نفيل عن ابن هشام «إنه وقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والذبايح التي تدبح على الأوثان ، ونهى عن قتل المؤدة وقال : أعبد رب إبراهيم . وبادأ قومه ، يعيب ما هم عليه . . . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسند ظهره إلى الكعبة ويقول : يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى (١) » .

ومن هذا نقرر أن الحنيفة هي دين إسماعيل ، أو ذكرى لهذا الدين الموحد الذي أتى به ، كان في أعماق الأمة العربية ، وبقي في هؤلاء الحنيفة حتى ظهور الإسلام (٢) ونحن نعلم أن أبا ذر الغفاري كان واحداً من هؤلاء الحنيفة ، وأنه ذكر للمسلمين فيما بعد : أنه كان يتعبد على طريقة هؤلاء ، وأنه نأى عن الجاهلية نأياً كاملاً (٣) وينبغي أن نلاحظ أن الغالبية الكبرى من الأحناف كانوا من قريش ، ولم تترك لنا المصادر أسماء هؤلاء الأحناف الذين ينتمون إلى قبائل المدينة ، حيث يعيش اليهود بجوارهم . كان الأحناف دائماً بمكة ، ومن القرشيين على وجه العموم .

٦ - الحمس :

وفي قريش أيضاً نرى الحمس . والأحمس لغويًا المشتد الصلب في الدين وسميت قريش حمساً لاشتدادهم في الدين ، وذهابهم في ذلك مذهب الترهّد والتأله وأعلنوا « نحن بنو إبراهيم وأهل الحرمه وولاية البيت وقطان مكة وساكنوها » وقد قيل إن الرسول عليه السلام كان أحمسياً قبل مبعثه . وقد دخل مع القرشيين في عقيدة الحمس ، بعض القبائل ، منهم قبيلة بني صعصعة ، وستجد من بين هؤلاء - في عهد النزاع بين علي ومعاوية - من يقفون بجانب علي ، ويضعون أسماً لكثير من العقائد الصوفية فيما بعد ، وجاء الإسلام ، فأنكر على الحمس كثيراً من عقائدهم . ولكن ما أود أن أوجه الأنظار إليه أن هؤلاء الحمس أيضاً كانوا يشعرون تمام الشعور بأنهم أهل الحرم وينسبون إلى بانيه إبراهيم وإسماعيل .

٧ - صوفة :

وأخيراً - نصل إلى صوفة . وقد سبق أن ذكرنا قصة هذا الفخذ ونحن نتكلم عن اشتقاق كلمة

(١) الدكتور إسرائيل ولفسون : تاريخ اليهود ص ٧٨ - ٨٠ .

وأنظر ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٣٩ - ٢٤٧ .

(٢) ابن هشام . ج ١ ص ٢١١ - ٢١٦ .

(٣) الأزرق : تاريخ مكة ج ١ ص ١١٧ .

التصوف وقد أفاض ابن هشام^(١) وغيره من المصادر الكلام في هذا الفخذ. وكيف عرف الغوث ابن مر بأنه ربيط الكعبة وضأن الله. وذكرت أمه الآيات الآتية :

إني جعلت رب من بينه ربيطة بمكة العلية
فباركن لي بها إليه واجعله لي من صالح الدنيا^(٢)

وقلت إن أول من تنبه إلى فكرة ربيط الكعبة وضأن الله وصلتها بفكرة الذبيح إسماعيل هو الباحث العراقي : الدكتور كامل مصطفى الشبيبي .

ونتهى من بحث الحياة الروحية عند العرب قبل الإسلام بنتائج هامة : إن العرب - وهم أصحاب واقعية حسية بلا شك ، وفشلت الأساطير المركبة في حياتهم^(٣) - كانت لهم حياة روحية ، تمثلت في فريقين رئيسيين : الأحناف ، وصوفية وفي غيرهم من طوائف فرعية . كانوا يشعرون برغم عبادتهم للأصنام ، أنهم أولاد إسماعيل «الذبيح» وأن الكعبة بيت الله . ومستوثر هاتان الفكرتان أشد تأثير في حياة المسلمين الروحية . فيتعلقون بفكرة «الذبيح» ضأن الله ، وسيحاول البعض منهم تحقيق «الفداء» في نفسه ، وأن فكرة «تضحية» تضحية الكبش أو الضأن لا تتم رسالة إسماعيل الجد الأكبر للعرب بل للإسلام عامة ، فيقدمون أنفسهم ضائحين :

تهدى الأضاحي وأهدى مهجتي دمي . . .

وسيقف البعض الآخر منهم أمام البيت - بيت إسماعيل يرون فيه الوجود كله ، يرون الله ما دخله ، وما خرج منه . وسيعلم البعض الآخر أن الكعبة إنتقلت إلى قلوبهم ، ويتغنون بها أغنيات الروح . فلم تكن الحياة الروحية العربية قبل الإسلام حياة هشية ، كما ظن البعض ، كانت حياة مليئة بمختلف النزعات والانجهاات . وجاءت رسالة الإسلام لتعيدها إلى أصلها النقي ، إلى دين إبراهيم وإسماعيل .

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٢) الأزرق : تاريخ مكة ج ١ ص ١٣١ .

(٣) الدكتور محمد عبد المعين خان : الأساطير العربية قبل الإسلام .

الفصل الثالث

الحياة الروحية

في القرون الأولى الهجرى

ظهر الإسلام في قريش ، القبيلة الإسماعيلية العريقة ، وبجانب بيت إبراهيم وإسماعيل ، وظل تمجيد قريش - باعتبارهم أولاد إسماعيل - في الإسلام ، كما كان في الجاهلية . وبتين هذا حين أعلن محمد ﷺ أن « الأئمة من قريش » . وقد ظلت إمرة المسلمين إليهم ، حتى نهاية العهد العباسى . وبتين هذا أيضاً حين حول الوحي الإلهى قبلة المسلمين إلى الكعبة بيت إسماعيل ، وحين أكمل الرسول الحج إلى هذا البيت في حجة الوداع ، محتتماً بهذا دورة الوحي ، ومقفلأ هذه الدائرة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

١ - محمد النبي : أول الزهاد :

كان لا بد إذن أن تكون حياة الرسول وتعالجه شغل المسلمين إلى اليوم ، وأن يحاولوا صوغ حياتهم في شتى آفاقها على مثاله ، وكما استمدوا من تعالجه ، الجوانب العملية ، فأقاموا الفقه ، والجوانب العقلية ، فأقاموا الكلام أو الفلسفة ، اتجهوا إليه وإلى وحيه ، فأقاموا حياتهم الروحية . وقد تعرض الباحثون من الأوربيين لحياة النبي ﷺ قبل بعثته وبعدها . وذهبت بهم الأهواء والنزعات إلى مختلف الآراء . فرة يروى البعض منهم أن محمداً ﷺ كان مسيحياً قبل بعثته ، وأنه تأثر بالمسيحية حتى بعد نبوته ، مستدين في هذا إلى أخبار غير موثوق بها أنه قابل الراهب بجرى ، وأن أحد أقارب زوجته خديجة كان مسيحياً . ولكن سرعان ما يتبين لهم أن الرسول قد اختلف أشد الاختلاف مع المسيحية التقليدية في كثير من عناصرها اللاهوتية الأماسية ، ويرى البعض أنه تأثر بالمسيحية الحقيقية - وهى مسيحية الاسينين - وهى التى أظهرتها وثائق البحر الميت منذ عام ١٩٤٧ م أو بالمذاهب المسيحية الخارجة ، كالسمعانية أو الديصانية أو المانوية أو المرقونية ، ولكن سرعان ما يثبت لهم أن القرآن قد هدم الغنوصية وأنكرها ولم يعترف بتجسد أو تناسخ أو ثنوية ، ويعرض البعض الآخر

لمحمد ﷺ علي أنه كان يتعبد على اليهودية ، وأنه تجديد لأنبياء بني إسرائيل ، ولكنهم يرون بعد ذلك شدة الوحي على اليهود ، واتهامهم بالكذب والغييلة ، وتحريف الكتاب السماوي ومحاربة اليهود له أشد حرب . ويرى البعض الثالث أن محمداً كان يتعبد على طريقة الصابئة . وقد أنكر القرآن - فيما بعد - على الصابئة عقائدها .

لقد تعددت الدعاوى واختلفت ، وارتطم البعض منها مع البعض الآخر أشد الارتطام . وإنهت . كان محمد ﷺ قبل مبعثه قرشياً ، يحس بإحساس قريش العامر أنه ولد لإسماعيل ، ويسمع إلى كل ما في قريش من فضائل فيشعر به في أعماقه . ويرنو إلى الكعبة بيت الله ، فيرى الأنصاب والأزلام والأنصاب والصور ، فيأى عنها ويبغضها . ولم يؤثر عنه أنه كان من أحناف الجاهلية ، بالرغم من أن واحداً منهم أو اثنين كانا على صلة نسب بزوجه خديجة ، ولم ينهه سادة قريش حين أعلن مبعثه بأنه كان من هؤلاء الأحناف . ولم يخرج محمد ﷺ إلى الشام أبداً كما أثبتت الأبحاث الأخيرة ذلك ، ولا شك أن الرسول عليه السلام عرف المسيحية واليهودية ، ولكنه لم يتمسح ولم يتهود .

كان الطفل الصغير « راعي غنم » يقودها في الصحراء ، وحيداً ، وهي تلتف به ، الصحراء الشاسعة اللامتناهية . ويسمع إلى حذاء القوافل المارة ثم تلتف به الصحراء مرة ثانية ، ليسمع أنغاماً حلوة تملأ أذنيه وتمضى به الأيام . حتى بدأت تراوده الرؤى الصادقة . وتقول عائشة : « إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة ، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول الله ﷺ رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح » وترى عائشة أن هذه الرؤى حبيت إليه الحلوة « وحب الله تعالى إليه الحلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده » وكان يمضى إلى شعاب مكة وبطن أوديتها وكانت المرحلة الثالثة هي مرحلة التحنث . وللتحنث شروط ، الشرط الأول : الخروج من الحنث أى الخروج من الإثم ، ثم المجاورة في غار ، للتبرر . وكان الرسول يتحنث في غار حراء . وكانت هذه عادة قرشية ، غير متصلة برهبة مسيحية أو غيرها . يقول ابن هشام « وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية (١) وكانت قريش تأخذ معهم نساءهم ، وكذلك كان يفعل محمد ﷺ ، وكانوا في هذا التحنث يتجهون إلى الله ، متحللين من ذنوبهم ، متعبدين وفي غار حراء ، وعلى جبال مكة ، أتاه الوحي ، وأخذ عليه ميثاق النبيين .

وسنرى : فيما بعد أن مواقف الرسول عليه الصلاة والسلام قبل الإسلام تصبح مواقف لصوفية

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

الإسلام فيما بعد : الرؤيا الصادقة ، والحلوة والتحنن . وأندر محمد ﷺ عشرته الأقرين . وكانت دعوتهم إليهم :

(أ) هي الدعوة إلى التوحيد الصافي النقي ، ومحاولة لاستكناه عقيدة إبراهيم وإسماعيل فيهم . وكانت الوثنية الجاهلية - كما قلت - غطاء هشاً تحق هذه العقيدة بما نصبته من أصنام ونصب . ولم يكن من العسير على رسول الله أن يحرك فيهم هذه العقيدة .

(ب) الدعوة إلى هجران الحياة الدنيوية المضطربة الآتمة التي صهرتهم في طغيان فردى واجتماعي ، واختط الوحي لهم طريق الحياة الجديدة . وفرض عليهم الصلاة والصوم والزكاة . وقابله القرشيون بأشد مظاهر العنف .

(ج) ذكروهم بالحياة الأخروية ، ونخلود الروح ونشأة الجسد النشأة الثانية . ولم يفهم القرشيون هذا وأعلنوا مقاومته أشد المقاومة .

ولكن أقبل إليه رواد الروح ، يستمعون إلى القرآن ، خاشعين متصدعين . وهؤلاء هم الصحابة الأوائل ، مزيج من الأغنياء والفقراء ، ومن السادة والعبيد . . . يتبعون الداعي الجديد ، متخلين عن كل شيء دنيوي ، محتلين كل أنواع الأذى والاضطهاد والتعذيب ، وفي مكة حدثت واقعة الإسراء والمعراج فسرى الرسول إلى الملأ الأعلى وإلى بيت المقدس . وستكون واقعة المعراج والإسراء أكبر واقعات الصوفية - فيما بعد . وأقبل رهط من أهل يثرب إلى مكة واستمعوا إلى النبي ، وسرعان ما أسلموا . ثم تمت بيعة العقبة ، وهاجر الرسول إلى يثرب . وتكون المجتمع الجديد من الأنصار أهل المدينة ، والمهاجرين من أهل مكة ، وجميعهم - كما نعلم - اسم الصحابة .

ومن العجب أن المستشرقين من مؤرخي الحياة الإسلامية إبان ذلك العهد - يرون أن الإسلام قد تغير في المدينة ، بل إن أسلوب الوحي نفسه قد أصابه التغيير . وهذا خطأ ، كان الوحي المنزل في مكة يقرأ عالياً في أحياء المدينة ، وكان هذا الوحي أساس عقيدة التوحيد وأساس الإسلام . ولكن كان على الإسلام أن يواجه أعباء الحياة ، فأخذ يحدد قوانينه ، كما كان عليه أن يواجه التوراة والتلمود ، وأتباعها من يهود . كانت السور المكية في معظمها قصيرة ، لأنها كانت تقود المؤمنين إلى « تجربة الروح » بينما كانت السور المدنية - في معظمها طويلة ، لأنها كانت تعود المؤمنين بها إلى « تجربة الحياة » وكان على المسلم أن يعاني الاثنين معاً . ولكن نفس السور لم يتغير على الإطلاق . كما لم تتغير حياة الرسول ولا حياة صحابته . كان على الرسول وعلى صحابته أن يواجهوا أعباء الحياة ، ولم يدع الإسلام أبداً أنه أتى لإقامة حياة رهبانية فحسب ، بل أعلن أنه أتى لكي ينشئ حياة من نوع جديد ، يمتزج

فيها الجانبان - الجانب الروحي والجانب الجسدى . بل لا يتضح الجانب الروحي في أمة من الأمم مما لم تعان الجانب الجسدى . وهكذا كان الإسلام في المدينة ، ثم فيما بعد ذلك على مر العصور . وكان الصحابة بالذات فرسان النهار ، رهبان الليل .

٢ - طائفة القراء :

ولم يكن الرسول بغافل عن تعميق الجانب الروحي في حياة المسلمين ، فسرعان ما انتظمت طائفتان في المدينة ، كان لهم الأثر الأكبر في الحياة الإسلامية فيما بعد . أما الطائفة الأولى : فهي طائفة القراء . وهذه الطائفة كانت طائفة القرآن . يقول ابن نعيم صاحب الحلية : إن معظم هؤلاء كانوا من الأنصار « وكانوا يدعون القراء يحتطون بالنهار ويصلون بالليل » أو على حد تعبير ابن سعد « يلازمون الأعمدة ليلاً يتهدون ^(١) » وكانوا إذا ما جنبهم الليل ، آووا إلى معلم لهم بالمدينة بيتون ويدرسون القرآن « وقد أرسل الرسول سبعين رجلاً منهم لبعض القبائل للدعوة ، فقتلوا في بئر «معونة» وبصفتهم صاحب الحلية بأنهم كانوا الطبقة الأولى من النساك والعارفين والعباد الذين إنقرض معظمهم على عهد رسول الله ﷺ ، ولم تكلمهم الدنيا ، ولم يتدنسوا بما فتح عليهم من زهرة الدنيا إفتاناً . ويبدو أن المعلم الأكبر هؤلاء كان عبد الله بن مسعود وقد ذكر أنه قال « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً ، فليفعل » كما وصف ابن مسعود هؤلاء القراء ، حملة القرآن فقال « ينبغى لحامل القرآن أن يعرف بليته ، إذا نام نأتمون ، وبنهاره إذا نام يفترون ، وبجزنه إذا نام يفرحون ، وببكاؤه إذا الناس يضحكون ، وبصمته إذا الناس يخلطون ، وبخشوعه إذا الناس يختالون . وينبغى لحامل القرآن أن يكون باكباً محزوناً ، حكيماً ، عليمياً سكينياً ، ولا ينبغى لحامل القرآن أن يكون جافياً ، ولا غافلاً ، ولا صحابياً ، ولا صياحاً ولا حديداً ^(٢) » . كان هذا أبلغ وصف القرآنيين الأوائل ، ويبدو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد عهد إلى عبد الله بن مسعود أن يقوم بهم ، وكان عبد الله بن مسعود من أوائل من تلقوا الوحي عن رسول الله . والشخصية الثانية الكبيرة من القراء : هي شخصية أبي الدرداء . وقد كان أبو الدرداء تاجراً ، ثم ترك التجارة مستمعاً إلى صوت القرآن « لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » وكان للقراء الدور الهام في غزوات الرسول . ثم في حروب الردة ، وكان نداؤهم في الحروب : « يا أصحاب القرآن ، زينوا القرآن بالفعال » . وقد استشهد الكثير

(١) ابن سعد : طبقات ج ٣ ص ٣٦ و ٣٨ و ج ٦ ص ٢٥٥ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ١٢٣ و ١٣٠ - ١٣١ .

منهم في حروب الردة ، ثم انتقلوا بعد الفتوح يعلمون الناس القرآن ، ويعقدون الحلقات في المساجد . وكان أعظم هؤلاء القراء في أيام الشيخين أبا موسى الأشعري ، ويذكر صاحب الحلية عنه أنه كان يطوف في مسجد البصرة بعقد الحلقات ويعلم الناس القرآن . وكان لا يأذن بالدخول عليه إلا لمن جمع القرآن ، وكان يعظهم ويقول « لا يطولن عليكم الأمد ، فتفسو قلوبكم ، كما قست قلوب أهل الكتاب » . « إن هذا القرآن كان لكم أجراً ، وكان عليكم وزراً ، فاتبعوا القرآن ، ولا يتبعنكم القرآن ^(١) » .

ولقد عاش القراء فرقة زاهدة ، في عهد الخلفاء الثلاثة . وحين قامت الفتنة بين علي ومعاوية ، وقفوا بجانب علي . ثم انشقوا عنه ، ومنهم خرجت أكبر فرقة سياسية زاهدة هي فرقة الخوارج .

٣ - أهل الصفة :

أما الطائفة الثانية التي تمثل الحياة الزاهدة في عصر الرسول ﷺ في المدينة - فهي طائفة أهل الصفة ، وقد حاول بعض مؤرخي التصوف - كما قلنا من قبل - أن ينسبوا التصوف اشتقاقاً إليها . وقد بنى الرسول ﷺ الصفة في ظلال المسجد لهؤلاء الفقراء من المهاجرين والأنصار . وقد عاش أهل الصفة عيشة زهد وتقشف ، « وكان عليهم جناب الصوف ، لم يكن عندهم غيرها » يقضون أوقاتهم في قراءة القرآن وتدبره ، وفي الذكر والتفكير ، وكانوا من خاصة رسول الله . وكان الرسول يجرى عليهم أرزاقهم . وقد اعتبروا المثال الأول للمتجردين من الفقراء « لا يأوون إلى أهل ولا مال ، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال ولم يمزنون على ما فاتهم من الدنيا ، ولا يفرحوا إلا بما أيدوا به من العقبى » وقد حدث الوحي الرسول عنهم فقال : « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ، يريدون وجهه ، ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا » . وقد كلف جماعة من أشرف العرب النبي أن يترك هؤلاء ، لكي يتمكنوا من مجالسته ، فأبى ، وقال « الحمد لله الذي لم يمتني ، حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي ، معكم المحيا ومعكم الممات . وقد ذكر عن رسول الله الحديث المشهور « رب أشعث أغبر ذي طمرين ، لو أقسم على الله لأبره ، منهم البراء بن مالك » وقد كان البراء بن مالك أحد أهل الصفة ^(٢) . وسيأخذ الصوفية بعد - هذا الحديث ، ويعتبرونه من سمات الصوفى الكامل . كما أن أحدهم - وهو وابصة بن معبد الجهنى حفظ لنا الحديث المشهور عن رسول الله ، والذي يعتبر جوهر

(١) أبو نعم : الحلية ج ١ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٢) أبو نعم : حلقة الأولياء ج ١ ص ٣٢٧ - ٣٤٧ .

التصوف وهو : « يا وابصة جثت تسألني عن البر والإثم : يا وابصة أستفت قلبك : أستفت نفسك : البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس . والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك (١) » . وقد اعتنى بذكر هذه الطائفة وتبع تاريخها أوائل مؤرخي التصوف مثل أبي سعيد الأعرابي في كتابه « طبقات السالك » الذي لم يصل إلينا مع الأسف . كما فعل هذا أيضاً أبو عبد الرحمن السلمي ، والسبب في هذا أن حياة هؤلاء وسيرهم كان توطئة « للمذهب التصوف على حد تعبير أبي نعيم .

٤ - طائفة التوايين والبكائين :

ووجد - بجانب هاتين الطائفتين - طائفة التوايين والبكائين . ولم تكن هذه الطائفة فرقة قائمة بذاتها ، تتظم في حلقات كما انتظم القراء وأهل الصفة مثلاً ، وإنما كانت التوبة والبكاء طريقاً من طرق قدماء الصحابة ، سواء من أهل الصفة أو من غيرهم . وقد ذكر عن العرياض بن سارية - وهو من أهل الصفة - أنه كان من البكائين وفيه وفي أصحابه نزلت الآية : « وأعينهم تفيض من الدمع (٢) » . ومن الأمثلة على من اتخذوا هذا الطريق من الصحابة : مثال بهلول بن ذويب . وقد أورد جولد تسيهر ونيكلسون هذا المثال : فقد خرج هذا الصحابي إلى جبل بيجوار المدينة وليس لباس الشعر وربط يديه خلف ظهره بسلاسل من حديد وجعل يصيح « يا رب - انظر إلى بهلول يرسف في الأغلال ويعترف بذنوبه » والمثال الآخر هو مثال أبي لبابة لما ندم على خيانة إرتكبها ، ربط نفسه إلى عامود في مسجد المدينة وبقى على هذا الحال حتى أيقن أن الله غفر له . ويذكر نيكلسون أن هناك أمثلة أخرى ، وأنواعاً أخرى من أساليب الندم والتوبة كانت متصلة بشعائر الحج إلى البيت الحرام . ويذكر أن كثيراً ما ذهب الحجاج إلى مكة مشاة حفاة الأقدام ، أو طافوا بالكعبة - وهم مقودون كالجمال بمحلقات في أنوفهم ، كما أن الكثيرين منهم قطعوا على أنفسهم عهد الصمت . وأن أبا بكر حين تولى الخلافة ، أبطل هذه العادة وإعتبرها من أعمال الجاهلية (٣) .

وجد الزهد إذن - والتفكير - والتأمل ووجدت طرق وأساليب كل هؤلاء . أم أن النبي كان في أول الأمر « ينكر عليهم إصطناع المجاهدة وتعذيب النفس تكفيراً عن السيئات ، ثم يتراجع بعد ذلك -

(١) نفس المصدر : ج ٢ ص ٤ .

(٢) نيكلسون : في التصوف الإسلامي ص ٢٢ .

(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣ .

حين رسخت قدم الزهد في الإسلام ، فيقرهم على هذا « فقول خاطئ » ، وعدم فهم لموقف الرسول ﷺ . أنكر الرسول على الصحابين عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو بن العاص صيام الدهر « وتعذيب النفس » ، « وعدم السعي » و « إهمال الأسرة » وكان يريد أن يضع أصول الزهد الإسلامي ولذلك قال للصحابي عكاف بن وداعة الملالي حين إمتنع عن الزواج « أنت إذن من إخوان الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى ، فالحق بهم . وإن كنت منا ، فن سنتنا النكاح » . وإنما لنعلم « بعد » أن صوفية الإسلام الكبار تزوجوا وأولدوا الذرية ، فهل كان هذا حائلاً بينهم وبين التصوف . إن من الثابت علمياً أن التراث الصوفي الإسلامي ، هو أعظم تراث من نوعه قد وصلنا ، ولا يقاس به التراث الصوفي غير الإسلامي . فلم يقف الزواج إذن عقبة في سبيل التصوف . وكان الرسول قد عمل على إقامة حياة روحية لا تتنافى مع « سنة الحياة » ولها « طابعها الخاص » وأطاع الصوفية فيما بعد سنة الرسول . وكان نتاج هؤلاء الصوفية أروع المذاهب الروحية والميتافيزيقية .

٥ - القرآن والحديث . . . وطريق الروح :

وانتقل النبي محمد عليه الصلاة والسلام إلى الرفيق الأعلى . وقد ترك لرواد الروح النماذج الآتية : القرآن . والقرآن حال أوجه . رسم في تعاليمه « طريق الروح » كما رسم « طريق الجسد » عرض للناس الزهد في الحرام ، كما عرض لهم الزهد في الحلال . وأعطاهم الخيرة ، الحرية في إختيار هذا أو ذاك . كانت دعوة القرآن هي « الحرية المكسبة » لأحد الطريقتين . ولم ينكر هذا الطريق أو ذاك . وسرى فيما بعد - كيف يبدأ التصوف بإختيار الصوفية لطريق الروح ، وكيف دخلوا هذا الطريق ، باستنباط مباشر وتعميق للآيات الروحية في القرآن .

أما النموذج الثاني فكان « الحديث » ، والحديث كالقرآن ، أصل من أصول الإسلام ، كما هو أصل من أصول التصوف . وقد إمتلأ الحديث أيضاً بأحاديث الروح . كما إمتلأ بأحاديث الجسد . وقد تمادى الصوفية فيما بعد - في النموذج الحديث . لقد أحبوا الرسول ، وتغنوا به في أشعارهم وفي نثرهم ، وكان من آثار هذا الحب أن حملوه أحاسيسهم ومداركهم ومشاعرهم : فأطلقوا كل هذه على لسانه ، واعتبروا المتحدث هو الأهم . ورأوا أنه هو المتقلب فيهم (تقلبك في الساجدين) فضخمت مادة الحديث الصوفي الموضوع من الصوفية على لسان الرسول . وهذا طريق وعبر - كما سألين فيما بعد - أن يرى الصوفي في نفسه حقيقة الرسول ، ويتكلم بإسمه ، ويعلن أنها أحاديث قديمة وغير قديمة . وإن التمسنا للصوفي العذر في أنه في حال الحب ، والمحبة فإن ، فإن المنهج العلمي يضع كل شيء في

مكانه ، محدداً موقوتاً ، وبالرغم من كل هذا ، فإن الأحاديث الصحيحة ، القوية السند ، الخالية من الوضع قد أنتجت تصوقاً خطيراً ، لا يقل أصالة عن التصوف المستند إلى الحديث المرصوع لقد إنبتق التصوف عند جماعة من أئمة السلف - من أمثال المهروي الأنصاري وابن تيمية وابن قيم الجوزية . كما وجد قبل هؤلاء فرقة السالية الصوفية والنموذج الثالث - حياة الرسول - وقد رأى الصوفية فيها مواقف التصوف الكبرى . وحاولوا محاكاة هذه المواقف ومراعاة سنته . وكانوا يرون فيه كما صرح أبو يزيد البسطامي - وهو في حالة جذبة رائعة ، متأملاً جال محمد العيني والمجرد - «إنه الفرد الأوحده» وسيأخذ الصوفية ، سواء كانوا من أهل السنة أو من الفلاسفة بجياته وستة . وسيكون معرجه هو أسامس التصوف كله - كما سترى بعد . وستخذ الصوفية جميعاً المثل الأعلى للطبيعة الإنسانية ، في موازاة للطبيعة النارية - طبيعة الشيطان ، أو في موازاة للطبيعة النورية - طبيعة الملائكة . والنموذج الرابع : حياة أصحابه من الزاهدين ، القراء وأهل الصفة ، والتائين والعابدين والنسائك .

زهده الشيخين :

وأطل عهد الشيخين : أما عهد الشيخ الأول ، فلا نراه يختلف أذى اختلاف عن عهد النبي ، في حياة المسلمين الروحية . أما طائفة القراء - فقد كان عهد أبي بكر امتحاناً عسيراً لها فسرعان ما نفروا مع جيوش المسلمين لقتال كذاب الإمامة - مسيلمة . واستشهد عدد كبير منهم في مواقعها المختلفة أما أهل الصفة فقد استمر نسق حياتهم في عهد أبي بكر كما كان في عهد الرسول . وكان صاحب الأول زاهداً أشد الزهد ، يعاف الدنيا ويحشى فتنها ، ويحاول قدر ما أمكنه أن يجنب صحابة الرسول أضرارها ، فحرم على أهل بدر الإمارة ، وحاول ألا يستخدمهم ، حتى لا تشوب حياتهم شائبة من دنيا .

وأقبل عصر عمر على المسلمين ، واندفع المسلمون إلى بقاع الأرض ، وملكوا كنوزها ، وحطلموا إمبراطورياتها . انهمر سيل الغنائم عليها . وأرسل عمر صحابة الرسول إلى الأمصار المختلفة ، يعلمون أهلها القرآن ، ويحكمون فيهم بكتاب الله وسنة رسوله . وقد نظر أحدهم وهو أبو موسى الأشعري إلى المسلمين ، وقد أقبلت عليهم الدنيا فقال لابنه : يا بني : لو شهدتنا ونحن مع النبي ﷺ ، إذا أصابتنا السماء لحسبت أن ريحنا ريح الضأن . ثم يعلم أبو موسى الأشعري أن بعض المسلمين يمنهم عن الجمعة أن لا ثياب لهم ، فدخل إلى بيته ، وليس عباءة من صوف . ثم خرج فصلى بالناس . وأراد أن يجيب الناس في لبس البسيط من الثياب - فيقرأ لهم حديث الرسول ﷺ «لقد مر بالصخرة من الروحاء

سبعون نيبا حفاة عليهم العباء» ويشرح لهم معنى القلب ، ويخشى عليهم من تقلباته «إنما سمى القلب لتقلبه ، وإنما مثل القلب مثل ريشة بفلاة من الأرض . ويحاول إشعال عاطفة الحزن فيهم «يا أيها الناس : إبكوا ، فإن لم تبكوا ، فتباكوا»^(١) ونرى صحابياً آخر من كبار القراء هو معاذ بن جبل ، يرى أيضاً أموال الأرض تقبل على المسلمين فيقول «ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم ، وستبلون بفتنة السراء ، وأخوف ما أخاف عليكم فتنة النساء»^(٢) .

ويعلن صحابى آخر من أهل الصفة القدماء وهو عبد الله بن أم مكتوم حديثاً للرسول ذكره لهم ، وقد ارتفعت الشمس في يوم حرقاس ، وهم في داخل حجراتهم فقال : يا أهل الحجرات : سعرت النار ، وجاءت الفتن كقطع الليل ، لو تعلمون لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيرا^(٣) ويقف صحابى آخر من أهل الصفة هو عقبة بن عامر الجهنى في مصر ، وقد سكن بها ينادى الناس بمجديث رسول الله «يجمع الناس في صعيد واحد ، ينقذهم البصر ، ويسمعهم الداعى ، ثم ينادى مناد «سيعلم أهل الجمع لمن العز والكرم» ثم يقول «أين الذين كانت تتجاف جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً» ثم يقول «أين الذين كانت لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله»^(٤) ولكن بينما كان كبار الصحابة يثرون وتأتيهم الأموال والغنائم تترى ، كان الخليفة الكبير يعيش في المدينة عيشة تقشف نادرة ، وكان قد عرف بالتحديث «وقد ذكر النبي ﷺ هذا فقال «إن في أمي محدثين أى مكلمين - ومنهم عمر» . وكان عمر بإجتماع الكتاب جميعاً مثلاً أعلى للتسك وللترهد . وحين ظهرت طائفة أطلقت على أنفسها اسم النساك ، وكانوا يسرون في تودة ووقار ، ويتكلمون بقدر ، سألت سيدة من سيدات المسلمين - هى الشفاء بنت عبد الله - عن أمر هؤلاء الناس أجيبت بأنهم طائفة النساك ، فقالت منكرة عليهم هذا «كان - والله عمر إذا تكلم أسمع ، وإذا مشى أسرع ، وإذا ضرب أوجع ، وهو الناسك حقاً» .

ومع أننى أوردت هذا النص ، لكى أثبت نسك عمر بن الخطاب الأصيل المنبعث عن طبيعة زاهدة ، فإن هذا النص ينئى أيضاً عن ظهور طائفة النساك بعد وفاة عمر بن الخطاب .

عرف عن عمر بن الخطاب إذن التسك - وهو أساس الزهد ، والتحديث أو التكلم - وهو

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٢٥٩ ، ٢٦١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٣) نفس المصدر ج ٤ ص ٤ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٥ .

ياصطلاح أحدث ظهوراً - العلم اللدني أو الذوق - وهو أسامس التصوف . ولا عجب بعد ذلك أن يربط مؤرخو التصوف بين عمر وبين أويس القرني ، وأويس القرني شخصية غامضة من شخصيات التابعين . عبر عنه صاحب الحلية بأنه « سيد العباد »^(١) وعلم الأصفياء من الزهاد . بشر به النبي ﷺ وأوصى به أصحابه « ومنجد عمر وعلياً يحاولون لقاءه . وكان أويس - فيما تقول المصادر - يعيش متخفياً ، أشعث أغبر ذا طمرين . وتتحقق فيه صفات من أطلق عليه متأخرو الصوفية « قطب الغوث »^(٢) « وسنعود إلى أويس بعد قليل .

٧ : عهد عثمان : ظهور الترف ومقاومته

وانزوى روح الزهد أو التنسك في عهد الخليفة الثالث عثمان . كان عهد عمر بن الخطاب - عهد الغزو والفتوح ، بينما كان عهد عثمان - عهد الترف وجمع الأموال . ولم يكن للرجل يد في هذا . لقد أقبلت الأموال في أيام عمر وفي إثر أيامه ، واغتنى المسلمون أشد الغنى . وكان عمر قد استعمل عدداً كبيراً من بنى أمية في الشام . وحين تولى عثمان أقرهم ، ولم يكن هؤلاء من الصحابة بمعنى الكلمة ، كانوا رجال حكم من الطراز الأول ، ورجال دنيا في أعماقهم . فعاشوا في قصور الشام ، كما عاشوا في قصور البصرة والكوفة والمدائن عيشة مترفة ، تفوق حتى معيشتهم الناعمة الأولى في مكة . ومن الإنصاف أن نقول : إن حيازة الأموال والضياع لم تكن مقصورة على هؤلاء الطلقاء « من بنى عبد شمس » بل كانت فاشية في مجموعة كبيرة من الصحابة حتى المجاهدين والأنصار وأهل الصفة والقراء . ولكنها كانت أظهر وأصرح في بنى عبد شمس . ولا شك أن مجموعة لا بأس بها أيضاً من الصحابة والتابعين والقراء ألمها كل الألم هذا المظهر الدنيوي الذي ساد الحياة الإسلامية ، وأنكرت أشد الإنكار أن يكون هذا هو الإسلام الحقيقي الذي دعا إليه محمد ﷺ ، وهو في جوهره ثورة على المجتمع القرشي المترف ، أو بمعنى أدق ثورة على المجتمع المترف الإنساني عامة . وتبلور الألم والإنكار في ثورة فردية عارمة ، قام بها صاحب الرسول القديم أبوذر الغفاري . إن هذا المتحنت القديم ، تذكر ما فعل به أشراف قريش ، حين أتى رسول الله إلى مكة ، وأعلن إسلامه ، فضربوه حتى كادوا أن يقتلوه . . . وقد جاهد أبوذر الغفاري مع رسول الله في جميع المشاهد ، حتى انتصر الإسلام ، وإنصرت كلمة المساكين والفقراء والضعفاء ، ولم يلبث أشراف قريش ، أن تسللوا - تحت أسماء

(١) ابن سعد : طبقات ج ٣ ص ٢٠٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٧٩ وما بعدها .

وابن الجوزي : صفة الصفة ج ٣ ص ٢٢ - ٣٠ .

الطلاق-إلى الصدارة، بعيدونها جذعة ويتحكون مرة أخرى في رقاب المسلمين. وجميعهم المال ويكثرونه. بل رأى صاحب الحب القديم عثمان بن عفان الذى شاركهم هم وبقية أصحاب الرسول وعاون بنفسه وماله. بل خرج عن ماله، ليعيش حياة الفقراء فى مكة والمدينة، يعين الطلقاء على الأمر.، ويمكن أقدامهم. . . وأعلن أبوذر الثورة على الكنوز. وذهب إلى الشام وهناك هاله الأمر، واختلف أشد الاختلاف مع والى دمشق - معاوية بن أبى سفيان، فأعادته معاوية إلى المدينة وهو يقول: إن بنى أمية تهدنى بالفقر والقتل، ولبطن الأرض أحب إلى من ظهرها، وللفقير أحب إلى من الغنى. وأخذت الحلقات تنفض من حوله خوفاً من سطوة بنى أمية. وقد سئل، لم تذهب الناصر عنك - فقال: إني أنهارهم عن الكنوز. ثم أعلن دعوته « إن خليلي صلى الله عليه وسلم - عهد إلى: أنه أيما ذهب أو فضة أوكى عليه، فهو جرم على صاحبه حتى ينفقه فى سبيل الله عز وجل » فالمال مال المسلمين لا مال الله. وذهب أبوذر إلى الكعبة فنادى المسلمين « يا أيها الناصر - أنا جندب الغفارى، هلم إلى الأخ الناصح الشفيق » فاكشفه الناس، فقال: أرايتم لو أن أحدكم أراد سفراً، أليس يتخذ من الزاد ما يصلحه: فقالوا بلى: قال: فسفر طريق يوم القيامة أبعد ما تريدون، فخذوا منه ما يصلحكم. قالوا وما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، صوموا يوماً شديداً حره لطول النشور صلوا ركعتين فى سواد الليل لوحشة القبور» ثم نهاهم عن الحرص الذى أذل أعناقهم. وقابل العابد السائح الخليفة عثمان، وحاول الخليفة استمالته بالمال ولكنه صاح فيه « اعزموا دنياكم، ودعونا وربنا وديننا » وبتهم الخليفة عثمان عليه وأمامه كومة من أموال ويسأل كعب الأخبار « ما تقول فيمن جمع هذا المال، فكان يتصدق منه ويعطى فى السبيل، ويفعل ويفعل: فقال كعب: إني لأرجوله خيراً: ويقضب أبوذر ويرفع العصا على كعب صائحاً « وما يدريك يا ابن اليهودية: ليودن صاحب هذا المال يوم القيامة كما لو كانت عقارب تلسع السويداء من قلبه » وكان المال الذى بين يدي الخليفة أموال عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد نقلت أمواله المكذسة إلى الخليفة بعد وفاته - لكى يقسمها بين ورثته. ويقول أبوذر « إني لأقربكم مجلساً من رسول الله ﷺ وذلك أنى سمعت رسول الله يقول « إن أقربكم منى مجلساً يوم القيامة من خرج من الدنيا كهيئة ما تركته فيه » وإنه والله ما منكم من أحد إلا وقد تشبث بشئ منها غيرى » .

وتذكر أبوذر هجرته إلى الرسول، وتحديه لقريش فى عقر دارها - وكاد أن يقتل، ولما عاد يجراحه إلى النبي صاح فيه « ألم نهك عن العالمين » . . . وها هو يعود إلى قريش، يتحداها مرة أخرى. وها

هو الخليفة الثالث من قريش ومن بطن بنى عبد شمس - ينفيه إلى الربذة . وتذكر صرخة الرسول الأخيرة له « ليموتن رجل بفلاة من الأرض تشهده عصاية من المؤمنين » وذهب إلى هناك ، أراد أن يعيش وحيداً ، وأن يموت وحيداً . وقد مر به المؤمنون . . . ومات بين أيديهم (١) .

أما الشخصية الثانية الزاهدة والتي سارت على سنة أبي ذر - فهي شخصية تابعي هو عامر بن عبد قيس (توفى قبل الستين) وتلميذ أبي موسى الأشعري . وقد كان عامر بصرياً . وقد ترهد الرجل ، بل كان رأس الزهد في البصرة ، ومثله الحقيقي . وستكلم عنه بالتفصيل ، حين نتكلم عن زهد البصرة . إنما أوردناه هنا ، لأنه لم يكن زاهداً أو عابداً فحسب ، وإنما كان أيضاً أمراً بالمعروف ، وناهياً عن المنكر . وقد راعه فساد الحاكمين ، وغناهم وترفهم ، فارتفع صوته بالنكير ، وسيره وإلى عثمان على البصرة إلى المدينة . وقد تقابل مع عثمان وتجادلا في عتف ، ثم أعاده إلى البصرة ، ولكنه اختلف مع واليها ، وهوينهاه عن الفساد والترف ، فأمر عثمان بإخراجه إلى الشام . ولم يكف في الشام عن دعوته . تلك هي صور من الزهد الإسلامي الأول . استند على حقيقة الإسلام الأولى ، وهي أن المال للجماعة ، وأن على ولاة الأمر أن يعيشوا عيشة الفقراء أو أدنى وإلا عاد الأمر لرياسة قرشية أو ملكا عضوضاً ، وقد أثبتت تطورات الحوادث فيما بعد ، أن أبا ذر كان على حق في دعوته . إن كنوز بني أمية في الشام استخدمت ببراعة نادرة لإنشاء قيصرية أخرى وملكاً متوارثاً .

وكان زهد الصحابة أو بمعنى أدق عبادتهم أو تسكهم ، فلم ترد كلمة الزهد أبداً - في حياة هؤلاء ، كان هذا الزهد داخلياً ، يمثل شغاف قلوبهم ، لم يكن هناك من مؤثر خارجي ، يدعو إلى هذه الثورة على حياة الترف وعدم زهد الحاكمين . فلم تقم ثورة على الحاكمين في عهد الشيخين . لقد كان الشيخان يمثلان بساطة الإسلام الأولى ، ويعرفان عن كل ما يتصل بالترف الدنيوي بسبب . فتولى عباد الصحابة الشيخين بل عملوا لها ، ولم يتخلف سلمان الفارسي أو عمار بن ياسر ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان عن العمل لها ، وتولوا الإمارات المختلفة في أرجاء العالم الإسلامي الجديد باسمها . ولكن حين تولى عثمان ، عرض عباد الصحابة أعماله على « قانون الإسلام » الذي ارتسم في كيانهم ، فأرأوا الأمر يختلف ، والصورة تتنوع وتبتعد ، فجأر أبو ذر بصوته

وقد حمل مؤرخو الصوفية فيما بعد - أبا ذر الغفاري صوراً من التصوف لم يقل بها ، واعتبروه من أصحاب المقامات والأحوال . وقد صحح فعلاً أن الرجل هو صاحب مقام « الفقر » كما فهمه المتأخرون

(١) ابن نعيم : الحلية ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٧ وابن الجوزي : صفة الصنوة ج ١ ص ٢٣٨ - ٢٤٥ والدكتور الشبي : الصلة بين

من الصوفية ، الفقر التابع عن حقيقة داخلية فيه . فقد زهد الرجل في المال ، وقد كان في يده ، ورفضه ، وهو يلقي عليه ويغرى به . ورفض التأويل الآخر للقرآن ، وكان يدعو لهذا التأويل الآخر ، الصحابي الثالث ، وخليفة رسول الله عثمان بن عفان - رجل لا يشك مسلم في إيمانه ، ولكن أبا ذر رفض كل هذا ونأى عنه . ولذلك وضع السراج على لسان أبي ذر « إن قيامي بالحق لله تعالى لم يترك لي صديقا ، وإن خوفي من يوم الحساب ما ترك علي بدني لحما ، وإن يقيني بثواب الله ما ترك في بيتي شيئا » وقد شك الدكتور كامل الشيبني في هذا الخبر الذي يجعل من أبي ذر رجلا من أصحاب المجيد . وحقا إن تطبيق النقد الداخلي على النص يثبت أنه ليس من نفس أبي ذر . ولكن مورخى الصوفية يطلقون على لسان المتقدمين من العباد ، الوصف المستشف من أحوالهم ومواجيدهم . كان هذا هو حال أبي ذر تماما وإن كان لم يعبر عنه بمثل هذه الألفاظ . كما تتبع الدكتور الشيبني أيضا قصة البكاء التي تروى عنه ، ورأى أنها صفة لم تؤثر عن أبي ذر ، وأنه « أول من تكلم في علم الفناء والبقاء » ورأى أنه ادعاء يحمل جرثومة تهافته (١) . كما أنكر الدكتور الشيبني أيضا أن يكون أبو ذر قد استخدم مصطلح « صاحب المنزل » دلالة على الله . ورجع أن هذا المصطلح لم يستخدم في القرن الأول . وهذا كله حق . كان الرجل يتجه فقط إلى القرآن يتدبره ، ويستلهم مصطلحاته . ولم يخط كثيرا في طريق التأويل .

وأقبلت الفنن كقطع الليل المظلم على المسلمين ، لقد قتل عثمان .

٨- علي بن أبي طالب : رباني الأمة

وتولى إمرة المؤمنين « رباني الأمة » علي بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته ، والحواري الذي نشأ طفلا بافعا في رحاب النبوة ، يستلهم نواحيها ، ويعيش في أنوارها . وبينما عرف الآخرون من صحابة محمد ﷺ الشر والخير ، وتقطعت أعينهم وأفئدتهم بين الجاهلية والإسلام وعانوا التجربة المرة ، نزاع الخير والشر فيهم ، لم يعرف علي بن أبي طالب سوى الخير فقط ، ولم يعرف الجاهلية أبدا . وكان السادة من قريش بل أعمامه المقربون المحنكون بالتجارب ، الموقنون بأمانة الداعي الجديد يحاربون مطلع النور ، ويقفون من دعوة التوحيد - موقف العداء المطلق ، وكان أطفال قريش يعيدون في لعبهم وصخبهم ، وهو - طفل في الثامنة من عمره ، يتبع محمدا - أينما حل وأينما سار . يصل - كما يصل - ويتبع كما يتبع . وينزل الوحي على الرسول ، ويقرؤه للطفل الصغير ، فينقش في قلبه ، قويا صارخا .

(١) الدكتور كامل الشيبني : الصلة ج ١ ص ٣٢ .

وحين أنذر صلوات الله عليه عشيرته الأقرين . وفي العشرة أبو طالب شيخ قريش ووالد علي ، لم يستجب محمد واحد منهم ، سوى الطفل الصغير ، مباحا على روحه وماله . ورأى الطفل الصغير أيضاً بعضاً من سادة قريش ممن عركتهم الجاهلية وأوضارها ، وعرفوا حبها وكدرها ، يقبلون على ابن عمه وسيدته ومعلمه الأكبر ، فيؤمنون به ، ورأى المستضعفين والعييد يسرعون إلى رحاب الرسول ، مؤمنين خاشعين قانتين . وكم أحب علي هؤلاء ، وأنس إليهم ، كما أنسوا إليه . وأحبههم أشد الحب ، كما أحبه ، ومضت الأيام ، وعلى في مشاهد الرسالة الكبرى ، يكتب دوره الكبير فيها طفلاً وشاباً . ومات الرسول ﷺ ، ونزل على مع جسده إلى القبر يوسده التراب ويلقى عليه النظرة الأخيرة . وتولى أبو بكر خلافة المسلمين ، وعاد علي إلى بيته عابداً ، وفتياً للمسلمين وتولى عمر الخلافة بعد أبي بكر ، وعلى في عبادته وقهقهه ، وتولى عثمان الخلافة . ورأى علي ، الصاحب الثالث عثمان الذي أحبه الرسول أشد الحب وأحبه هو أشد الحب ، يضع بنى أمية على رقاب المسلمين ، ويفسر الإسلام . الذي حارب هو لأجله أشد الحرب ، كما حارب صديقه عثمان نفسه لأجله أشد الحرب ، يفسره تفسير دنيوياً ، يبعد فيه عن جانبه العبادي ، الجانب الذي عاش على له ، وعرف الإسلام به ورأى كبار الصحابة يختلفون مع عثمان في عنف وشدّة ، رأى عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود وغيرهما ، يقفون من الخليفة موقف المعارضة ، ويرفعون أصواتهم في كل مكان بالشكوى المريرة منه . ولكن العابد المتبتل لم يعارض ولم يختلف - اللهم مرة واحدة - حين رأى الخليفة ينفي العابد المتبتل الصاحب القديم لمحمد رسول الله أبا ذر ، لم يستطع صبراً عن أن يخرج هو ووالده الحسن والحسين لوداعه ، وأتى عثمان ومروان بن الحكم لمتعه ، وتلاحي الرجلان أشد التلاحي .

كان علي بن أبي طالب رباني الأمة ، كان كبير عبادها وزهادها وكبير علمائها . وكان الزهاد والعلماء يرون أنه الملجأ بعد مقتل عثمان الخليفة الضعيف الحي الذي تسلفت مشيخة قريش على أعناقهم مرة ثانية إلى حكم المسلمين . وتولى علي إمارة المؤمنين ، والتف فعلاً حوله البديون من المهاجرين والأنصار . والتف حوله أيضاً العباد والقراء - ولنا نؤرخ هنا لتفصيلات أوحى عموميات النزاع السياسي بين علي وأعدائه من مشيخة بنى أمية المترفين في قصورهم في الشام ، والذين بدءوا يستخدمون الكنوز في تدعيم حكم قريش الأموي القديم ، إلا بقدر معاونة هذا النزاع السياسي على توضيح الحياة الروحية عند المسلمين وتطورها .

عاش علي بن أبي طالب في خلافة الشيخين حياة الفقيه العابد ، وكان يجمع القرآن ، وكان هذا

هو العهد الذي قطعه على نفسه حين قبض الرسول (ﷺ) ثم تمضى الليالي الطوال وهو يتعبد ويتهدج ويتأمل القرآن وكان الشيخان يلجآن إليه في الفتاوى والأقضية الهامة التي كانت تلم بالمسلمين في هذا العهد المتطور وقد كثرت الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة التي تؤكد تماماً أن علياً كان هو الوعاء الذي انقذ فيه العلم الإسلامى ، سواء أكان هذا العلم مستنبطاً عن طريق الذوق أو عن طريق العقل . كان على بن أبى طالب - من بين الصحابة جميعاً - فارس الطريقين - وهذا ما دعا الشيعة من بعد إلى نسبة «علم سرى» لعلى بن أبى طالب . وأن هذا العلم قد أورثه إياه النبي . ولم يكن الأمر كذلك . لم يكن الأمر أمر علم سرى انتقل على تلك الطريقة الغنوصية ، والتي حاول الغلاة بالذات تحقيقها في تدشين العلاقة العرفانية بين الرسول وبين على ، والتي ستجعل بعض الفرق سلمان الفارسي هومشدها ، كما كان سلمان أيضاً مشدها بين النبي وبين الله . إنما الحقيقة أن علياً ترقى في حجر النبوة ، وحيى يتأملها ، واستمع للرسول محمد في مواطن الوحي المتعددة . يلتقى عليه بالقرآن . فتفتح قلب الحوارى الصغير وعظم ، وأصبح مرآة مجلوة تتأمل مجربات الحوادث ، وينصقل فيه الحكم والعبر ، فيلقيه إلى الناس نوعاً من العلم المباشر يذفه إليهم ، على صورة أخاذة ، وكبر القلب وعظمت المرأة المجلوة ، وحين انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة أبو بكر ، ثم عمر ، كان على مع قرآنه . ويعود إليه الخليفان فيما استعصى عليهما من فقه . وكان على - على حد تعبير عمر - أفضانا . ثم حين تولى الخليفة الثالث عثمان الأمر ، اعتكف على أوكاد . وكانت حياته حياة عبادة وزهد . وقد ذهب الخيال بالشيعة في كل واد . وكان علياً في فترة الخلفاء الثلاثة يعيش على رأس مجموعة خاصة تدبر الأمر لعودته إلى إمرة المؤمنين ، وعينوا له أركاناً «سلمان وأبا ذر والمقداد وعمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان» . ولم يحدث هذا قط . إن الأسانيد التاريخية المختلفة تثبت تماماً أنه لم يكن ثمة أركان أو ثمت مؤامرة ، وإنما الحقيقة أن علياً كان سيد عباد المسلمين وزهادهم ، وكان هؤلاء الخمسة مثلاً علياً من أمثلة العبادة والزهد . فكان لا بد أن تربطهم بعلى بن أبى طالب أوثق صلوات المودة والمحبة . ومن الأمثلة على تعسف الشيعة في ربط هؤلاء بعلى كأركان له - ما أورده على لسان سلمان في على «لو حدثتكم بكل ما أعلم من فضائل أمير المؤمنين عليه السلام لقات طائفة منكم هو مجنون ، وقالت طائفة أخرى «اللهم اغفر لقاتل سلمان» ونحن نعلم أن سلمان مات قبل خلافة على ، وقبل أن يتلقب على بلقب أمير المؤمنين - إن هذا اللقب الذى استحدث في عهد عمر ، لم يطلق على على إلا حين تولى الخلافة ، فلا موضع إذن للقول إن سلمان

أطلقه على قبل خلافته ، التي لم يحضرها هو^(١) قد يقول الشيعة إن الأركان اعتبروا علياً أمير المؤمنين الحقيقي إذن . ولكن هذا يقدح في أخلاقية سلمان الفارسي صاحب القديم لرسول الله ، كيف يفعل هذا الحوار العتيق لمحمد ﷺ هذا ، وهو في الوقت نفسه يعمل واليا على المدائن لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين في المدينة^(٢) ، والأمر كذلك في عمار بن ياسر . فقد عمل واليا لعمر بن الخطاب على الكوفة ، ولكنه أحب علي ابن عم الرسول ، وسيد العباد واعتبر علياً إمام المساكين . وأحب أبو ذر الغفاري علياً بكل شغاف قلبه ، ولكنه لم يكن على الإطلاق يرمى إلى إسباغ مجد ذنوبى على ابن عم رسول الله . أما حذيفة بن اليمان فكان والياً على المدائن - وقد عرف بصاحب سر رسول الله ﷺ وكان يقول « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر^(٣) وقد خصص الدكتور كامل الشيبى فصلاً قيماً عن حذيفة بن اليمان . وذكر أن تميز حذيفة بلقب « صاحب السر » أثار مسألة طبيعة العلم في الإسلام - هل هو علم واحد أم علمان : ظاهر وباطن . ويورد فكرة السراج صاحب اللمع أن في الصحابة من كان مخصوصاً بنوع من العلم ، كحذيفة ، فقد خصص بعلم أسماء المناققين ، وكان قد أسره إليه الرسول ، ثم يورد فكرة أبو طالب المكي صاحب قوت القلوب بأن حذيفة قد خصص بعلم المناققين وأُفرد بمعرفة علم النفاق وسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من الصحابة^(٤) . وحققاً : قد ذكر عن حذيفة هذا . ويحاول الشيبى أن يثبت صلة علم حذيفة بعلم علي . ولا ضير في هذا ، وإنما محاولة إثبات أن حذيفة كان من أركان الشيعة ممن حاولوا إقامة خلافة علي الدينوية على المسلمين أمر متسر ، كان هؤلاء وغيرهم يحبون علياً ، لأن علياً كما قلت - يمثل فضائل الإسلام العليا من فقه وعلم وعبادة - كان حقاً صاحب الروح بعد رسول الله ﷺ .

وازدادت عبادة علي بعد توليه الخلافة ، وها هو ينظر إلى المسلمين فيراهم تغيروا - فينظر في كآبة ويقول : « لقد رأيت أثراً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فما أرى أحداً يشبههم . والله إن كانوا ليصبحون شعثاً غبراً صفراً . بين أعينهم مثل ركب المعزى ، قد باتوا يتلون كتاب الله ، يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، إذا ذكر الله ، مادوا كما تيمد الشجرة في يوم ريح ، فانهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم . والله لكان القوم باتوا غافلين^(٥) » . ولقد ذكر صاحب الحلية عن مجاهد بأن شيعة علي هم

(١) (٢) وجهت تلميذى سعاد على عبد الرزاق معبدة الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب نظرى إلى هذه الحقائق .

(٣) أبو نعيم حلية الأولياء ج ١ ص ٢٧٣ .

(٤) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة . ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٥) أبو نعيم حلية . ج ١ ص ٧٦ وابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٨ .

العلماء الذليل الشفاه الأختيار الذين يعرفون بالرهبانية من أثر العبادة (١) .

وكان على أكثر المسلمين صفاء وتحديثا ، وقد قلنا من قبل إن عمر كان يتميز أيضاً بهذه الموهبة . وقد فتح هذا بابا للشيعة في نسبة العلم السرى له ، المنقول عن النبي ، أما الصوفية ، فاعتبروا علمه - علما لدنيا ، يدخل في باى الكشف الصوفى ، بل كان على في نظرهم أصل هذا العلم أو هذه المعرفة الذوقية الحدسية . ولقد أورد ابن الجوزى وأبو نعيم وصيته لتلميذه كميل بن زياد (قتل عام ٨٣) . فقد أخذ على بن أبى طالب بيد كميل بن زياد - وأخرجه إلى ناحية الجبانات - أى القبور وتنفس على نفساً طويلاً ثم تكلم عن القلوب فقال : يا كميل بن زياد . القلوب أوعية ، فخبرها أوعاها - للعلم - احفظ ما أقول لك : الناس ثلاثة : عالم ربانى - ومتعلم على سبيل نجاة - وهمج رعاع أتباع كل ناعق - يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » ثم يمضى على في تفضيل العلم على المال ، ثم يخبره أن في قلبه علما يخشى أن يلقنه الناس ، فلا يستحسنون استخدامه ، ولكنه لن يعدم حجج الله في الأرض « بلى - لن تحلوا الأرض من قائم لله بحجة ، لكى لا تبطل حجج الله وبيئاته ، أولئك هم الأقلون عددا الأعظمون عند الله قدرا ، بهم يحفظ الله حججه ، حتى يودوها إلى نظراتهم ويزرعوها في قلوب أشباههم . هجم بهم العلم على حقيقة الأمر ، فاستلنوا ما استوعر منه المترفون ، وأنسوا بما استوحش عنه الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدان ، أرواحها معلقة بالمنظر الأول ، أولئك خلفاء الله في بلاده ، ودعواته إلى دينه هاه هاه . . . شوقا إلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لى ولك . إذا شئت فقم » (٢) القطعة من نفس على فعلاً ، وهى في صميم الزهد بل التصوف ، وليس فيها غنوصية على الإطلاق . ولكن ما يلبث مؤرخو التصوف أن يضعوا على لسان عبد الله بن مسعود حديثا مسنداً « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن ، وإن على بن أبى طالب عنده علم الظاهر والباطن » (٣) أو يذهب صاحب نهج البلاغة إلى أن علياً يعلن أنه اندمج على مكنون علم ، لو أباح به للناس ، لاضطربوا اضطراب الأرشية في الطوى البعيدة ، ويذهب صوفى شيعى متأخر إلى الغلو ، فيورد حديثا بين على بن أبى طالب وبين تلميذه كميل بن زياد عن الحقيقة ، فإذا بعلى يجب « الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة - فيقول كميل بن زياد - زدنى بيانا - فيجيب على : محو الموهوم ، وصحو المعلوم . فيقول كميل زدنى بيانا فيقول على : هتك

(١) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، وأبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٦٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة الصفوة ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، وأبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٣) أبو نعيم الحلية ج ١ ص ٦٥ ، ح ١ ص ٨٤ ، ٨٥ .

الستر ، لغلبة السر . فيقول كميل : زدني بياناً . فيقول علي : نور يشرق من صبح الأزل ، فيلوح على هياكل التوحيد بآثاره . فيقول كميل : زدني بياناً : فيقول علي : اطفئوا السراج ، فقد طلع الصباح^(١) وهكذا اعتبر صاحب طرائق الحقائق علي بن أبي طالب إشراقياً ينطق بنظرية النور الإشرافية ويتكلم عن هنك الستر وغلبة السر ، والنور المشرق من صبح الأزل ، ويخوض في الهياكل - وهي فكرة إشراقية ذات مصدر صابئي .

وكان لعلي بن أبي طالب تلاميذ أخذوا العبادة عنه ، وأحبهوه كعابدين المسلمين الأول . وساروا على طريقته . ويدخل أحدهم على معاوية ، ويطلب منه هذا الأخير أن يصف علياً - فيقول في أجمل وصف لأجمل عابد زاهد . « كان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما جش ، كان والله كأحدنا يدنينا إذا أتينا ، ويجيبنا إذا سألناه ، وكان مع تقربه إلينا وقربه منا ، لا نكلمه هيبه له . فإن تبسم ، فمن مثل اللؤلؤ المنظوم ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . فأشهد بالله ، لقد رأيتني في بعض مواقفه . وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يميل في محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتلجلج تلملج السلم ، ويبكي بكاء الحزين ، فكأنني أسمع الآن وهو يقول : ياربنا ياربنا - يتضرع إليه ، ثم يقول للدنيا : إلى تغررت ، إلى تشوقت ، هيهات هيهات ، غرى غرى - قد بتك ثلاثاً ، فعمرك قصير ومجلسك حقير^(٢) » هذا وصف حقيقى للزاهد الإسلامى المقلب فى القرآن ، يعيش فيه - ولكن ما يلبث التصوف الفلسفى أن يضع على لسان تلميذ آخر له هو صعصعة بن صوحان (وهو أيضاً تلميذ لسلمان الفارسى) ، نظرية صوفية شيعية غالية تجعل من إمامة آدم وإمامة علي شيئاً واحداً . فقد كان الإمام فى البدء صاحب الأسماء ، وصاحب العلوم اللدنية آدم ، ثم تعرف بعد ذلك فى علي وكذلك وضع التصوف الفلسفى متأثراً بالشيعية تلميذاً لعلي : هورشيد الهجرى ، فى صورة غنوصية ، فقد كان يحمل العلوم السرية مقابلاً لحذيفة بن اليمان حامل سر الرسول ، وصديق علي . وكان علي ينطق بالحكمة ، فنسبوا إليه أقوالاً صوفية منها « لو كشف الغطاء ما ازددت إلا يقينا .

(١) الحاج معصوم على : طرائف الحقائق ج ١ ص ٢١٧ وما بعدها .

(٢) ابن الجوزى : صفة الصفة ج ١ ص ١٢١ ، ١٢١ :

وهي كلمات قاطا عامر بن عبد قيس الزاهد البصرى . ولكن سرعان ما نسبت إلى على ، وغيرها كثير (١) .

كان على حقاً سيد عباد المسلمين ، وقد قال له الرسول ﷺ « يا على إن الله قد زينك بزينة لم تزين العباد بزينة أحب إلى الله تعالى منها . هي زينة الأبرار عند الله عز وجل الزهد في الدنيا » (٢) . ولكن ما يلبث الصوفية المتأخرون أن يضعوا الحديث الآتى ، إن علياً راية الهدى ، وإمام أوليائى ونور من أطاعنى ، وهو الكلمة التى أئزمتها المتقين ، من أحببته أحببته ، ومن أبغضه أبغضنى (٣) . لا جرم بعد ذلك أن اندفع الشيعة فى تأمل صورته ، ودفعهم الحب إلى وضع الأحاديث على لسانه ، المعتدلون منهم فى اعتدال ، والغلاة منهم فى مغالاة ، والزنادقة منهم فى زندقة . ولم يسلم صوفية أهل السنة من الوضع أيضاً ، كما لم يسلموا وهم ستة متعصبون - من أخذ بعض الآراء والأفكار الشيعية ، وتبنى محبة على ، كما وضعه معظم الصوفية من أهل السنة على رأس أسانيدهم الصوفية ، بل اعتبروا نشأة الزهد والتصوف على يديه . إذ أن الصوفية تكاد تجتمع على أن علياً هو الذى ألبس الحرقة للحسن البصرى - رأس أول مدرسة للزهد ، كما أنهم يرون أن المدارس المختلفة للتصوف تتصل به . ولم يحدث هذا عن تشيع سياسى لعلى وإنما عن محبة للرجل ، وبالتالي لآرائه ، ولآراء بعض أتباعه وكأن الصوفى يؤمن بالمذهب السننى أو المذهب الأشعرى بصورة تفصيلية ، ولكن لا يمنع هذا من أعتناق أفكار شيعية عامة ، يضمها مذهبه . ولقد فسر الدكتور كامل الشيبى الصلة بين التصوف والتشيع فى صورة جميلة ، ولكنه لم يتنبه إلى أن صوفية الإسلام كانوا فى مجموعهم ستة ، وفى حقيقتهم ستة ، ولكنهم أحبوا علياً وأهل البيت حبا ملك شغاف قلوبهم ، ولكنهم لم يتشيعوا أبداً ، ولم يتعبدوا على النسق الشيعى المعروف .

تلكم لمحات من حياة على ، الروحية الحقيقية والأسطورية ، ماله حقيقة ، وما حمل من آراء : ولكن كيف انعكس توليه لإمرة المؤمنين على طوائف العباد أو الزهاد فى عصره . أما الطائفة الأولى ، فكانت طائفة القراء ، وكانت هذه الطائفة تنتشر بالذات فى البصرة والكوفة والمدائن ، أما قراء البصرة فلم يشاركوا فى إتباع « سيد العباد » « وربانى هذه الأمة » كانوا عثمانية أو كانوا أقرب إلى القعود أو اتقاء « الفتنة » بينما هرع قراء الكوفة والمدائن وراء على بن أبى طالب . وكانت

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ح ١ ص ٦٨ .

(٢) أبو نعيم : الحلية ج ١ ص ٧٠ .

(٣) نفس المصدر ج ١ ص ٦٧ .

أصوات هؤلاء ، تندندن بالقرآن في ليالى معسكره . ولكن ما لبث هؤلاء ، أو مجموعة كبيرة منهم أن اختلفت معه حول « التحكيم » ثم خرجوا عليه مكونين أكبر طائفة ، أو أكبر فرقة زاهدة بمعنى الكلمة في تاريخ الإسلام ، وهى فرقة الخوارج . والخوارج ، ذو صبغة سياسية تخرجهم عن نطاق هذا البحث . لقد كانوا زهاداً متقشفين حاربوا لأجل عقيدتهم وانتهت آثارهم في العالم الإسلامى إلا قليلاً . ولا نجد فيهم « رنة القلب » وسم الحياة الروحية ، ولم تخرج عنهم نظريات كونية أو جمالية ، ويبدو أن زعيم القراء في الكوفة في هذا الوقت وهو عبد الله بن وهب الهمداني المعروف في بعض المصادر بـ « سبأ » ، قد أثار القراء في الكوفة ، كما أثارهم في مصر ، حتى قتلوا عثمان بن عفان ، ثم تابعوا علياً واختلقوا معه ، وكونوا فرقة الخوارج ، وقد نرى على بن أبى طالب عبد الله بن وهب الهمداني ، ولكن بعد أن أهاج القراء ، فخرجوا على علي ، ومن العجيب أن فلهاوزن يرى أن السبئية « هم قتله عثمان فتحوا باب الحرب الأهلية ، وأسسوا فرقة الخوارج الثورية ، وتولد عنهم انبياء الإسلام » (١) وهذا تتضح صورة جديدة لعبد الله بن سبأ ، هو عبد الله بن وهب ، والسبئية هم قراء الكوفة الذين انقلبوا على علي ، وسرى بعد ذلك أن عبد الله بن وهب الهمداني يشارك في قتل الحسين ، ثم يقتله المختار بن أبى عبيد عام ٦٧ هـ وستكون السبئية بعد ذلك علماء على الخوارج على السلطان ، بحيث يدعى حجر بن عدى وأصحابه بالسبئيين لاعتبار موقفهم السياسى أيام خلافة معاوية خروجاً .

أما قراء البصرة فمالبثوا أيضاً أن تركوا عزلتهم وعبادتهم وأخرجوا عبيد الله بن زياد بعد وفاة معاوية بن يزيد ، ووثبوا بالبصرة . وقد آلم هذا صحابياً قديماً للرسول ﷺ كان مازال بعد على قيد الحياة - وهو أبو بزة الأسلمى . وكان أبو بزة الأسلمى من أصحاب الصفة القدماء - وكان يحدث أهل البصرة بحديث النبي ﷺ « إن مما أحتشى عليكم شهوات الغنى في بطونكم وفروجكم ومضلات الهوى » فلما ثارت الفتن واحدة بعد الأخرى - أخذ يحدث أهل البصرة « إني أحتسب عند الله عز وجل أنى أصبحت ساخطاً على أحياء قريش ، وأنكم - معشر العرب - كنتم على الحال الذى قد علمت من جهالتكم والقلة والذلة والضلالة ، وأن الله عز وجل نعشكم بالإسلام ، وبمحمد ﷺ خير الأنام حتى بلغ بكم ما ترون ، وأن هذه الدنيا هى التى أفسدت بينكم ، وإن ذلك الذى بالشام ، والله إن يقاتل إلا على الدنيا ، وإن الذى حولكم الذين تدعونهم قراءكم ، والله لئن يقاتلوا إلا على الدنيا »

(١) فلهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٣٩٦ . وانظر أيضاً البحث الرابع عن السبئية في الدكتور الشيبى : الصلة ح ١ ص

فلما سئل : بما يأمر إذن . فقال : لا أرى خير الناس اليوم إلا عصابة ملبدة ، خصاص البطون من أموال الناس ، خفاف الظهور من دمائهم » ثم دعاهم إلى الذكر فقال : لو أن رجلا في حجره دنائير يعطيها . وآخر يذكر الله عز وجل ، لكان الذاكر أفضل^(١) . وكان أبا بزرة الأسلمي كان يود أن يبني قراء البصرة في قراءتهم وعبادتهم ، وأن يمثلوا أصحاب الروح في الإسلام بعيدين عن المعترك السياسي ، وقد رأى أن مروان وبنو أمية في الشام يقاتلون على الدنيا ، والزبير في مكة وهؤلاء الذين يدعون بالقراء من أتباعه في البصرة يقاتلون على الدنيا . وسرى عابدا من كبار العباد وفي عصر متأخر عن هذا العصر - وهو الفضيل بن عباد (المتوفى عام ١٨٧ هـ) ينصح أحد أتباعه بالتباعد من القراء فيقول « تباعد من القراء ، فإنهم إن أحبوك ، ملحوك بما ليس فيك ، وإن أبغضوك ، شهدوا عليك ، وقبل منهم^(٢) » ونستنتج من هذا أن القراء - الذين نشأوا في أرباض مكة ، وفي سهول المدينة - أول ممثلين للحياة الروحية الإسلامية - قد انتهوا إلى طائفة تأخذ بالدنيا ، وتقبل عليها ، وتشارك في الفتن والإحز ، ثم انقلبوا إلى مراءة وصناعة . ولكن مما لا شك فيه أنهم أدوا مهمتهم الأولى - لقد أذكوا روح القرآن في عدد كبير من الناس ، وحفظوا القرآن في القرن الأول . ثم خرجت منهم طائفة « القصاص » وكان لهذه الطائفة أيضا أثرها في إذكاء الحياة الروحية في الإسلام ، وستكلم عن هذه الطائفة حين نبحث عن نشأة الزهد وتطوره في مدرسة البصرة .

أما الطائفة التي تمثل الحياة الروحية في الإسلام ، والتي ظهرت أيضا في عهد علي وخلال الفتنة بينه وبين معاوية ، فهي طائفة المعتزلة ونحن نعلم أن المعتزلة نشأت عبادية لا عقلية فريق من كبار الصحابة ، اعترضوا الخلاف بين علي ومعاوية ، وبنى البعض الآخر في منازلهم ، وذهب البعض الثاني إلى الثغور ، يتبعون الله ، ويقراءون القرآن . ومن هذه الطائفة المعتزلة الزاهدة خرجت فيما بعد : فرقة المعتزلة ، وقد اشتهرت هذه الفرقة العقلية - فيما بعد - بزهد أصحابها ، وكان واصل بن عطاء وعمرو ابن عبيد يعرفان بالترهد والتتشف .

وقتل علي بن أبي طالب - رباني الأمة ، وقد أنكر على شيعته . قبل وفاته إغراقهم في الترف ، فقد رآهم مرارا يأتون إليه ، وليس فيهم ما أراده فيهم ، حلما علماء ذبل الشفاه أختيارا يفترشون الجباه ، مذلين أنفسهم العاتية بفارغون المؤثرى الدنيا من الطغاة^(٣) - فقال « وما لي لا أرى فيهم سببا الشيعة . . . خمص البطون من الطوى ، يبس الشفاه من الظلم ، عمش العيون من البكا^(٤) » وسرى

(١) أبو نعيم الحلبى ج ١ ص ٢٢ ، ٣٣ (٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ١ ص ٨٦ .

(٢) السلى : طبقات الصوفية ص ١١ . (٣) المبرد : الكامل ج ٣ ص ٢٠٤ .

أن هؤلاء الذين جرعه الغيظ حيا ، يحاولون الإغراق في التوبة والندم والبكاء ، فينشأ فيهم التوايون والبكاؤون ، وتسيطر الروح - وسط العواصف السياسية ، والتزعزعات الدنيوية ، وشيخ في العالم الإسلامي «إشراقه ضمير» . . . نبقى بعد ذلك نبراسا لصوفية الإسلام حين يتكون التصوف - كمذهب وكطائفة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من طوائف الإسلام كالفقهاء - والمتكلمين .

لا جرم أن أصبح رباني الأمة - بعد ذلك رأس السلاسل الصوفية ، ورأس السند الصوفي والزهدى وأن يتجه إليه أصحاب الروح في الإسلام - متأملين متعشقين . وأخذ الصوفية يحملون صورته أحاسيسهم ومشاعرهم . ولم يفعلوا هذا - صادرين عن نظام شيعي ، بل عن تأمل روحي عميق في حقيقته المتصلة بنبي الإسلام ، واستمداده لعلمه من روح القرآن . وكان هؤلاء الصوفية أهل سنة في مجموعهم . وسرى أنه كان من أهم ما يعنى به الصوفية هو تأكيدهم التام بأن عقيدتهم هي عقيدة أهل السنة والجماعة ، فينبون في مقدمة كتبهم ، عقائد السنة ، بما فيها من موالاة الخلفاء الأربعة - أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم لا يقدح في هذه العقيدة بعد - أن يتميز على بن أبي طالب عن الآخرين بأنه المثال الأكمل للعلم الصوفي ، وللحياة الصوفية ولا يقدح في هذا أيضا في أنه كان للآخرين أيضا من الخلفاء بعض المشاركة في هذا العلم وفي هذه الحياة .

وعاشت صورة على بن أبي طالب الزاهدة والعارفة في دوائر زهاد أهل السنة والجماعة وصوفيتهم فيما بعد - حية زاهية . وكان وسم على بن أبي طالب برباني هذه الأمة صادرا عن رجل من أهل السنة والجماعة هو الحسن البصري ، بل اتهم الحسن البصري بموالاة بني مروان . وبقيت صورة على بن أبي طالب الزاهدة العارفة في قلوب أهل السنة والجماعة حتى الآن . أما لدى الشيعة ، فقد كان الأمر على خلاف ذلك . ما أنهى القرن الأول ، وأنتهت صفحات التوايين والبكائين من المسلمين ، حتى أتمحت صورة على الزاهد في حياة الشيعة ، وحل محلها صورة على «الإمام» ، صورة على ذي الحق السياسي المقدس عند المقتصد من الشيعة ، وصورة على الولي الغنوصي لدى الغلاة منهم ، كان الشيعة الغلاة يتمنون بالزهد ، ويتمسحون بالأسرار والطلاسم ، ولكنهم فعلوا هذا عن طريق غنوصي أجنبي . وبينا عاش على المحب الزاهد العالم العابد في قلوب صوفية أهل السنة ، عاش على المغيظ الحاقق في قلوب غلاة الشيعة . وقد اندفع الشيعة إلى جمع المال ، فأثروا أشد الثراء ، وبنعكس هذا على المشاهد الشيعة المقدسة ، المزينة بالذهب والياقوت والزبرجد وشتى الجواهر ، بينما شاعت في مساجد مشيخة الصوفية من أهل السنة البساطة والخلو من السرف والتألق .

أما أن فلاسفة الصوفية ، وبخاصة المتأخرين من الفرس ، قد أعتبروا عليا سر الوجود ، وصورة

تركيب العالم ، وأنه الوجود ، ولولاه لسرى العدم في العالم الموجود ، فلا شك أن هؤلاء الفلاسفة من الصوفية قد فعلوا هذا متأثرين بكل ما حولهم من غنوصيات . والتصوف الفلسفي الإسلامي غير التصوف الإسلامي السني ، لقد كان الأول ملفقا منسقا مجمعا ، بينما كان الثاني صادرا عن القرآن والسنة ، واحتضن عليا في نطاقها ، وأخرج لنا - علم الأخلاق الإسلامي .

وكان مقتل علي (عام ٤٠ هـ) عهدا فاصلا بين عهدين واضحين كما نعلم : عهد الخلفاء الراشدين ، وعهد بني أمية . وقد انعكس هذا بوضوح على الحياة الروحية في الإسلام . كان الإسلام الأول - يرى الدين أساسا للدولة ، ولذلك شاعت العبادة - وهي روح الزهد - لدى حكام المسلمين ولدى المجموعة الكبرى من الصحابة . ومن الخطأ القول إن هذا الزهد كان زهدا ماديا يتمثل في الملابس الخشن ، والطعام البسيط ، والاستهانة بالمال وإنفاقه في سبيل الله . حقا فعل هذا الصحابة في ملبسهم ومأكلهم ولكن انقذ فيهم أيضا الجانب الروحي : إقبال على القرآن وتذوقه والراحة إليه ، وقيام الليل والنهار . والتجهد والتقلب على المضاجع والذكر . ثم إنشق في البعض منهم : كعمر وعلي وحذيفة : علم غيبي أولدني وتأمل غيرهم من الصحابة القرآن ككل ، فزى عبد الله بن مسعود يقول : القرآن مادبة الله ، وهي كلمة تحتوى معان عميقة . وبلا شك أنها أثارت الصوفية فيما بعد إلى تلاوة القرآن ، وتطبيق المنهج الاستنباطي عليه : والمنهج الاستنباطي الصوفي هو محاولة النفوذ إلى داخل هذه المادبة الربانية . فتفتح المعاني الذوقية على الصوفى ، وخلاصة القول في هذا العهد كله أنه أعتبر الإسلام الحقيقي . هو دين العبادة والزهد ، وزهد صحابة هذا العصر - على تفاوت بينهم ، منبثقين عن القرآن والسنة ، مختلفين في زهدهم - إلى حد ما - فبيما ينهى عبد الله بن مسعود بعض أصحابه عن التعبد في الجبانات ، نرى عليا يأخذ تلميذه كميل بن زياد لوعظه في الجبانات ، ولكن طريق الجميع كان ينبثق عن مصدر واحد . ومن أهم ما نلاحظه أننا لا نجد كلمة الزهد أبدا تظهر كمصطلح كما أننا لا نجد كلمة التصوف كما أننا لا نجد أبدا مصطلحي العلم الظاهر والعلم الباطن . وكان الإسلام الثاني - إسلام بني أمية ، يرى الدولة أساسا للدين . فبدأ تفسير آخر للإسلام ، مخلصا أول الأمر ، على يد عثمان ، يرى أن تجمع الكنوز ، فتنفق في سبيل الله ، وكان الرجل - برغم أناقته ورفاهة عيشه بتعبد الليالي ، ويعيش مع القرآن ، ولكنه أحب عشرته حبا أنساه الكثير من مثل الإسلام المكي الأول ، فوق - بدون أن يشعر ، في مزائق أسلمت الحياة الإسلامية كلها إلى بني أمية الخاقدين الحقد الحقى الدفين على الإسلام والمسلمين ، وقد قيل : إن بني أمية تابعوا الغزو ، فنشروا الإسلام . كأن هذا لم يكن يحدث ، لوتولى أمر المسلمين ، غير بني أمية من عباد المسلمين وخلصائهم

الكبار . ثم إن أمة فعلوا هذا لإثراء خزائهم ومثلها . وفرضوا أقصى الضرائب والمكوس على البلاد المفتوحة ، بل كانوا يمنعون الناس من الدخول في الإسلام ، حتى لا تقل دخولهم من جزية غير المسلمين . وجاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي الزاهد - فأبطل هذا فيما بعد :

وفزع جماعة من أوفياء المسلمين وخيارهم من تقلب مفهوم الدولة لدى خلفاء دمشق ، فبدأت صورة العبادة المختلفة في شتى المدن ، فنشأت مدارس العبادة أو مدارس الزهد ، وكان لكل مدرسة عوامل مختلفة عاونت على إنشائها . وستتبع نشأة تلك المدارس في القرن الأول والقرن الثاني موضوعيا وتاريخيا . ومن الصعوبة بمكان أن نفصل بين نشأة تلك المدارس وتطورها في كل من القرنين الأول والثاني ، فإن تداخل هذين القرنين في حياة تلك المدارس واضح تماما ، كما أن من الصعوبة أيضا أن نفصل بين هذه المدرسة أو تلك ، فتكاد تكون العوامل المشتركة في نشأتها واحدة ولكننا سنجد اختلافات ييشية ، قد تحدد معالم كل مدرسة . وقد ذهب مؤرخو الحياة الروحية في الإسلام إلى أن الزهد قد انتهى - بعد الصحابة إلى ثمانية : عامر بن عبد الله بن قيس وأويس القرني وهرم بن حيان والربيع بن خيثم ومسروق بن الأجدع ، والأسود بن يزيد وأبو مسلم الخولاني والحسن بن أبي الحسن (١) وقد كان هؤلاء من سادة التابعين ، أخذوا عن الصحابة ، وتعلموا عليهم في مختلف البلاد الإسلامية . فكان نشأة المدارس إذن تعود إلى التابعين ، بعد أن ضخمت الحياة الإسلامية وتشعبت . ومن الثابت أيضا أن مجموعة العباد أو الزهاد قد نشأوا جميعاً عن طائفة القراء ، كما نشأ عن هذه الطائفة أيضا الفقهاء والمتكلمون كما كان من طائفة القراء أيضا القصاص . ولقد كان الزهد في البصرة أميز منه في أية مدينة أخرى . ولذلك فإننا سنحاول توضيح الحياة الروحية فيها أولاً ، ثم نعقب بتاريخ الحياة الروحية في المدن الإسلامية الأخرى .

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٢ ص ٨٧ ابن الجوزي : صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٥ ، ١٢٧